كيف يفكر المسلمون

في القرن ٢١

أ-. د-.عبد الكريم بكار

٢٠١٦ ١٤٣٦



كيف يفكر المسلمون

ح-/ خالد رزيق مرزوق القرشي ، ١٤٣٥هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
دار وجوه للنشر والتوزيع
اجمل ماقيل من الحكم والامثال والاقوال./ دار وجوه
للنشر والتوزيع .-
الرياض، ١٤٣٦هـ
..ص؛ .. سم
ردمك: ٢-٨-٩٠٥٨١-٦٠٣-٩٧٨

١-الامثال العربية ٢- الوصايا والحكم أ- العنوان
ديوي ٠٢٨٤, ٤٤٢٦٨١٨ /١٤٣٦
رقم الإيداع: ٤٤٢٦/ ١٤٣٦
ردمك: ٢-٨-٩٠٥٨١-٦٠٣-٩٧٨

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
WOJOOOH
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف: 4562410 الفاكس: 4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الناس لم يكونوا في أي يوم من الأيام أحوج إلى عقولهم وتوظيف خبراتهم منهم في هذه الأيام حيث إن تعقد المشكلات وكثرة المتغيرات وحساسية المعطيات المختلفة... إن كل ذلك سرَّع تبدل الأوضاع وتغير الأحوال على نحو لم تألفه البشرية في تاريخها الطويل. هذه الوصية تتطلب من أهل كل بلد أن يتحسسوا باستمرار نقاط قوتهم وضعفهم إلى جانب الفرص المتاحة لهم والتحديات التي تواجههم، وإن نتائج ذلك التفحص كثيراً ما تكشف عن ضرورة إعادة الأولويات وإعادة تحديد نقاط ارتكازهم الإصلاحي والتنموي، وهذا بالطبع يقوم على طريقة تغيير طريقة التفكير بما يتناسب مع مشكلات عصرنا التي تفوق الحصر.

أنا هنا لن أتحدث عن مبادئ التفكير وطرقه وآلياته، فهذه الموضوعات أقرب إلى الوسائل والتفاصيل الفنية، وإنما سأتحدث عن بعض الموضوعات والقضايا التي

أرى أن تكون موضع عناية القادة والمثقفين المسلمين على نحو خاص وجماهير الأمة على نحو عام، وقد رأيت أن يشتمل هذا الكتيب على أربعة عناوين أساسية هي:

١-العقل والعقلية.

٢-قيم أساسية.

٣-الأمة والمجتمع.

٤-أبعاد نهضوية.

ومع علمي أن ما تحدثت عنه لا يتناول سوى جزء يسير مما ينبغي التحدث عنه في هذا المقام إلا أنني آثرت الإيجاز مراعاة لأحوال أهل زماننا، كما أن أصل هذا الكتيب كان عبارة عن محاضرة ألقيتها في جامعة طيبة في المدينة المنورة عام ١٤٣٧ وقد زدت على ذلك الأصل على مستوى الموضوعات ومستوى التفاصيل ما هو ملائم للنشر الجديد.

وإني لأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل إخواني القراء، وأن يجعله في موازين حسناتي، إنه سميع مجيب.

المؤلف في ١/ ١/ ١٤٣٧

العقل والعقلية

العقل عقلان: عقل فطري وهبي، وهو عبارة عن إمكانات ومبادئ أولية بدهية زود بها الخالق عز وجل بها بني الإنسان، وهي متساوية لدى الأمم، متفاوتة لدى أفراد الناس.

أما العقل الثاني: فهو في الحقيقة (الثقافة) على ما يراه علماء الإنسان، أي مجموع العقائد والأفكار والأخلاق والعادات والنظم السائدة في بيئة معينة، إنها أسلوب عيش الناس في بقعة من الأرض وطريقة رؤيتهم للحياة والأحياء.

أما العقلية فإنها ما يملكه الشخص من تعريفات ومصطلحات ومبادئ وخرائط ذهبية تشكِل طرائق تفكيره ومنظوره للأشياء والأحداث.

المطلوب منا جميعاً أن نطور ثقافتنا للتواءم فيها الأصول والثوابت مع الأفكار الإبداعية الجديدة، كما أن من المطلوب كذلك أن نتفحص العقلية السائدة لدينا من أجل تنقيتها من المفاهيم والانطباعات والخرائط الذهبية البالية والجامدة، حيث إن الشعب الذي لا يفهم زمانه بفرصه وتحدياته يكون مرشحاً لتحمل شروره وسلبياته.

إن مما بساعد على تجديد عقولنا وعقلياتنا الآتي:

١-التعليم مدى الحياة:

ربما كان الناس قبل مئة سنة ينظرون إلى فكرة التعليم المستمر أو مدى الحياة على أنها من باب الترف المعرفي، وذلك لأن معظم الناس كانوا أميين، وبالتالي فإن الذي يحصل على أدنى قدر من المعرفة المنهجية يشعر بالتميز بين أقرانه، كما أن الناس في الماضي كانوا يشعرون بأن ما تلقوه من معرفة خلال التعليم الرسمي كاف لنجاحهم في أعمالهم ووظائفهم، إذ إن كل شيء كان بسيطاً والمهمات الوظيفية كانت تقليدية جداً وجامدة إلى حد بعيد، أي أن الحافز للاستمرار في التعليم كان شبه معدوم، الآن طبعاً قد تغير كل ذلك.

في ستينات القرن الماضي استخدمت (اليونسكو) مصطلح (التعليم مدى الحياة) على أنه وسيلة لربط مختلف مراحل التعليم النظامي مع التعليم غير النظامي وفي مفتتح القرن الحادي والعشرين حصل تطور هائل في ممارسة التعليم مدى الحياة بسبب توفر التعليم عن بعد وانتشار مفهوم التدريب على رأس العمل، كما أن اشتعال المنافسة الاقتصادية على مستوى العالم يتطلب من الموظفين اكتساب مهارات جديدة من أجل المزيد من اللياقة في أداء الأعمال، ويفوق كل ما ذكرناه في التحريض على التعلم مدى الحياة التجديد المستمر في أساليب الإدارة ومفاهيم التسويق وطرقه إلى جانب المخترعات والآلات الجديدة التي تحتاج إلى التدريب على استخدامها وتشغيلها.

إن النظرة الإسلامية للمعرفة تجعل للتعليم بعداً دينياً حيث إن أهل العلم يقررون أن طلب العلم النافع هو من أعظم ما يُتقرب به إلى الله تعالى بعد الفرائض، وقد كان إمام مثل أحمد بن حنبل يترك صلاة النافلة حين يلتقي بشيخه المحدث

أبي زرعة، وذلك لأن التنفل متاح في كل وقت،لكن اللقاء بالشيوخ لا يكون متاحاً دائماً وقد ورد عنه ﷺ قوله: ﴿ مفهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال ﴾[1] وصح عنه أنه قال: ﴿ لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة ﴾.

نحن نحتاج إلى الاستمرار في التعليم لأهداف غير اقتصادية حيث إن الاستمرار في اكتساب المعرفة يعزز من ثقة الشخص بنفسه، ويمنحه نوعاً من الشعور بالتفوق على غيره، كما أن التكيف مع الحياة الاجتماعية الجديدة وما تتطلبه من لطف وتجمل وفهم لمشاعر الآخرين... يجعل المرء محتاجاً إلى التعلم الدائم.

بناء على كل هذا فإن مدى انتشار التعلم مدى الحياة قد صار واحداً من المؤشرات الدالة على تقدم المجتمع وتخلفه، وإنك لترى هذا بوضوح حين تكون في مكان يلتقي فيه أبناء البلدان المتقدمة بأبناء البلدان النامية أو المتخلفة حيث تجدهم كالمطارات مثلاً حيث تجدهم منقسمين إلى فريقين متمايزين: فريق يقرأ أو يسمع شيئاً وفريق نائم أو ينظر إلى التلفاز أو الجوال... وهذا التمايز ناشئ من أن التعلم المستمر صار جزءاً من ثقافة الشعوب المتقدمة وعادة من عاداتهم اليومية على حين أن معظم أسرنا ومدارسنا قد أخفقت في تكوين الشغف بالمعرفة لدى عموم الجيل الحالي والذي قبله.

التعليم الضعيف والتعليم القائم على التلقين يولدان نوعاً من الكره للتعلم والعلم وكل ما يتصل بهما، ويرسخ هذا أن معظم الوظائف في البلدان النامية لا علاقة لها بالمعرفة، على حين أن أكثر من ٤٠٪ من الوظائف في الولايات المتحدة وأوربا واليابان... يتطلب من الموظفين الاتصال الدائم بالمعرفة.

---

١ ورد الحديث بطرق ضعيفة يقوي بعضها بعضاً، ومعناه صحيح.

حب العلم يحتاج إلى جهود كبيرة داخل الأسرة، ويحتاج إلى الارتقاء بالتعليم وبيئات العمل، وهذا كله مما يحتاج إلى التفكير فيه بعمق في عصرنا هذا.

٢-مدافعة أم مؤامرة ؟

عالم العلاقات هو عالم التعقيد والغموض والتخرص، ولهذا فالأخطاء في فهمه دائماً حاضرة. لو تأملنا في حديث معظم المسلمين عن النكبات التي تحل بهم لوجدنا أنهم يشيرون في غالب الأحيان بأصابع الاتهام إلى المؤامرة الكونية التي تحاك ضدهم، ويبدو أن هذا التفسير راسخ في النفس البشرية، ويتم استخدامه بوصفه أداة للدفاع عن الذات، وبوصفه مخرجاً للهروب من المسؤولية الشخصية والتخلل من الالتزامات الأخلاقية الواضحة تجاه كثير من الأحداث، ولعلي هنا أجلِي بعض النقاط المهمة:

أ- لكل دولة وأمة مصالح كبرى تسعى إلى تحقيقها، وبما أن العالم منقسم إلى أقوياء وضعفاء وإلى منتجين ومستهلكين، فإن من الطبيعي أن يكون تحقيق كل فريق لمصالحة على حساب الفريق الآخر، وعلى سبيل المثال فإن للدول الصناعية مصلحة كبرى في الحصول على طاقة ومواد أولية رخيصة، ولها مصلحة كبرى أخرى في أن تجد أسواق العالم مفتوحة أمام منتجاتها، وهي مستعدة لخوض معارك كبرى من أجل ذلك، لأنها ترى أن مصلحة كهذه تعد وجودية ومصيرية بالنسبة إليها، نحن مصالحنا تكمن في بيع ما لدينا من مواد أولية بأغلى الأثمان حتى تسدد فواتير شراء منتجاتهم المصنَّعة، ولنا مصلحة كبرى في حماية صناعاتنا الناشئة من احتياج مصنوعاتهم لأسواقنا.

إذن إدارة النفوذ وتحسين شروط تحقيق المصالح هو ما يمكن أن نسميه مؤامرة، وهذا شيء غير مفهوم!.

نعم هناك انتهاك صارخ لما ينبغي أن يسود بين الأمم من أخلاق التعاون والتسامح والعدل والإنصاف والمراعاة، ولكن علينا أن ندرك أن كثيراً من أخلاق الفروسية قد صار عبارة عن طرف وذكريات جميلة، حيث أطلقت العولمة بآلياتها الرهيبة كل أشكال التوحش والرغبة في الاستحواذ، وصار على كل أمة أن تحمي مصالحها بقوة ذراعها، العالم في حالة حرب حقيقية وإن كل فريق من المتحاربين يرى أن له كامل الحق في استخدام أدواته من أجل النصر.

ب- هناك حقيقة ثابتة تقول: إن الأقرب إليك هو الأكثر تأثيراً فيك، وهذا يعني أن أسباب ما نعانيه من مشكلات هي في معظم الأمر أسباب داخلية، ولهذا فإنني أعتقد أن ضعفنا هو الذي يغري الآخرين بالتسلط علينا، لأن المستعمرين يحبون المكاسب السهلة والتوغل في المناطق الهشة.

القرآن الكريم أصل للمسألة بوضوح تام حين قال: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾[1] وحين قال: ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾[2].

إن الركون إلى نظرية المؤامرة يعني الاستسلام للقوى الغاشمة، كما يعني تبرئة أنفسنا من المسؤولية، إلى جانب أنه يصرفنا عن نقد أنفسنا ومراجعة سلوكياتنا ومواقفنا.

---

١ سورة آل عمران: ١٦٥

٢ سورة آل عمران: ١٢٠

ج- كثيراً مما يسمى تآمراً دولياً، هم من أعمال الساسة في الدول المتقدمة، ونحن نعرف أن الخداع والمكر والتقية والمواربة معان أصيلة في أقوال الساسة وتحركاتهم، ولهذا فإن من الطبيعي أن يتحدثوا على المنابر الدولية، ويفعلوا على الأرض شيئاً آخر، ومن المؤسف أن كثيرين منهم يشعرون وهم يخرقون المواثيق الدولية والقيم الأخلاقية أنهم يخدمون شعوبهم وبلادهم، ولهذا فما يفعلونه بنا هو طبيعي جداً، بل مطلوب، وعلينا أن نسأل أنفسنا هنا: لماذا نستغرب اعتداءاتهم وكل الشعوب تطلب من حكوماتها خدمة مصالحها بالطريقة التي تراعا ؟.

د- المدافعة أو التدافع الحضاري سنة من سنن الله تعالى في هذا الوجود، فما دام أهل الخير يعملون على شاكلتهم، وما دام الأشرار يعملون أيضاً على شاكلتهم، فلا مناص إذن من التصادم والتدافع، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولولا دف الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[1] نعم إن على أهل الإيمان أو أهل الحق أن يقفوا في وجه المبطلين وأن يردوا عدوانهم، وإذا لم يفعلوا ذلك فستفسد الأرض إن مدافعة الأعداء والوقوف في وجه مخططاتهم يصقل شخصيات أهل الخير إذ يطرد عنهم الكسل واللامبالاة والخوف والركون إلى الدعة، كما أنه يزيد في صلابتهم وخبراتهم، ونظراً لوجود هذه الإيجابيات ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾.

إن الله يبسط في القوة والرزق والظروف المواتية لبعض الشعوب مما يدفعها إلى البغي والعدوان والفساد في الأرض، وإن مدافعة ذلك يشكل نوعاً من التوازن العالمي حيث تتيح المدافعة للضعيف أن يقوى في الوقت الذي تعمل

---

١ سورة البقرة: ٢٥١

فيه على لجم اندفاع القوي.

الأمم العظيمة حين تشتد عليها الضغوط من الخارج تلجأ إلى الداخل بالتحصين والإصلاح، وهذا هو الذي نحتاجه مهما كانت تسميتنا لما يقوم به الآخرون تجاهنا.

٣-النظر من زوايا مختلفة:

من القصور البشري ما هو معروف من عجز الإنسان عن الرؤية من كل الزوايا، وهذا الوضع مع المسائل البسيطة والصغيرة ليس فيه إشكالية، لكن القضايا الكبرى والمعقدة تكون في العادة ذات أبعاد مختلفة، وتحتوي على الكثير من الثنائيات، ولهذا فإنه لا بد من النظر إليها من كل الزوايا وأخذ كل عناصرها بعين الاعتبار.إن بني الإنسان يعيشون في عالم الضروريات وشح الخيارات، بل قد يجدون أنفسهم في بعض الأحيان أمام خيار وحيد، وهذا على المستوى الفكري والقيمي على نحو أساسي.

المسلم يعتقد أن الحياة الحقيقية ليست هنا، وإنما في الآخرة، ولكنه مفطور على حب العاجل، كما أنه مفطور على حب الرفاهية والجنوح إلى التمتع بما حوله، وله إلى جانب ذلك متطلبات ضرورية للاستمرار في الحياة، وهو مع كل هذا عاجز عن تقدير مصالحه في كل وقت على نحو دقيق... لكل هذه الاعتبارات كان عليهأن يحصل على رؤية شاملة لحاضره ومستقبله بغية الحصول على شيئين مهمين، هما التوازن وترتيب أولوياته بشكل صحيح.

الرؤية الجزئية لا تفوت بعض المصالح فحسب، ولكنها قد تدمر المنجز

الإنساني بالكامل، وقد تشوه كل الملامح الجميلة للشخصية، وهذا مشاهد اليوم لدى بعض المجتمعات الغربية والإسلامية مع الأسف الشديد!. إننا حين ننظر إلى تحسن مستوى الدخل وتعاظم الملكية وزيادة مستوى الرفاهية على أنها عناوين للنجاح والسعادة والتقدم فإننا نكون قد وقعنا في ورطة كبيرة لأن ذلك سيعني ضمور الجانب الروحي والاجتماعي في حياتنا، كما أن ذلك قد يُلحق أشد الأضرار بما نعتبره الحياة الحقيقية، أي المنزلة الرفيعة في جنات عدن. وإذا دعمنا النجاح الفردي، وسخرنا له كل الموارد وصرفنا إليه كل اهتماماتنا، فإن النتيجة ستكون عبارة عن معاناة في الحياة الأسرية والاجتماعية، كما أن الاهتمام بالنجاح الفردي دون أخذ الاعتبارات الأخلاقية بعين الاعتبار سيؤدي إلى انتشار الظلم والبغي والفساد.

الاتكاء على حفظ الأمن في البلاد من خلال استخدام القانون والقوة والضغط والضبط والربط دون الاهتمام. بتغيير قناعات الناس والأخذ بملاحظاتهم واهتماماتهم وحاجاتهم... سيؤدي إلى خنق المجتمع وتخريب أخلاقه وضمائر أبنائه، والأخطر من هذا أنه يهيئ التربة لنبتة الغلو والتطرف الخبيثة.

إذا انهمكنا في التحديث وبناء الأبراج وناطحات السحاب والسعي إلى الرفاهية دون القلق من تأثير ذلك على علاقتنا بالله عز وجل وهويتنا وتقديرنا للآخرة ومتطلباتها، فهذا يعني أننا ننشئ حضارة معينة أو حضارة عرجاء، إذا إن من أسوأ ما يمكن أن يحدث أن نشعر بأن أجسادنا تقتات على حيوية أرواحنا ومبادئنا!.

اليابانيون يتمتعون بتجربة حضارية فريدة، ولعل من أهم أسرار فرادتها أنهم

مع كل الإبداع التقني والصناعي ومع كل عبقرية النظام والتنظيم التي لديهم طرحوا الكثير من الأسئلة المتعلقة بفلسفة النهوض وعلاقة الثقافة والهوية بالنهضة والتغيير، وقد كانوا ومازالوا يعانون من القلق الشديد والخوف من تأثير عمليات التحديث المتتابعة على الشخصية والهوية اليابانية الضاربة في أعماق التاريخ، ومن أجل هذا أبدعوا معاملة الاستمرارية والتغيير، ونحن أولى بهذه المعادلة لأننا أصحاب تراث غني ونحن فوق هذا أصحاب رسالة ومنهج ورؤية لتغيير العالم.

إن علينا من أجل التمكن من النظر من كل الزوايا أن نطرح الكثير من الأسئلة التي تساعدنا على تنمية وعينا بتعقيدات المشهد الحضاري عامة والإصلاحي خاصة، ومن تلك الأسئلة على سبيل المثال:

كيف نستطيع الأخذ باقتصاد السوق كما هو حاصل الآن في كل الدول الإسلامية دون أن نطلق العنان للرأسمالية المتوحشة ؟

- كيف نستطيع تربية أبنائنا التربية الإسلامية صحيحة في ظل الانفتاح غير المسبوق على كل ثقافات العالم ؟

كيف نحافظ على وحدتنا العقدية والثقافية مع التوسع المستمر في مساحة الحرية الشخصية على كل الأصعدة؟ كيف نجعل أبناءنا يتجهون إلى قراءة الكتب وهم يرون الجميع منهمكاً في استخدام أجهزة الجوال والحاسبات والأجهزة اللوحية والألعاب الإلكترونية ؟.

كيف نوازن بين حاجة أصحاب الأعمال إلى الدعاية والإعلان وبين حماية الجمهور من الخديعة والغش ؟.

كيف نقيم نصاب التوازن بين الحفاظ على خصوصيتنا الثقافية والحضارية وبين حاجتنا إلى الانفتاح على العالم والتعلم منه؟.

كيف نترجم الإمكانات المالية الكبيرة التي أفاء الله تعالى بها علينا إلى مكتسبات ثقافية وأخلاقية، أو بتعبير آخر: كيف نوظف الفوائض المالية في ارتقاء عقل الإنسان المسلم وروحه وسلوكه ؟.

إن هذه الأسئلة وأشباهها تنبه لدينا حاسة الاستشعار للأضرار التي تلحق بنا بسبب غياب الرؤية الكلية والشاملة، كما أنها تفتح أمامنا حقولاً جديدة لترتيب الأولويات والقيام بالموازنات الصحيحة.

٤-من العقل الممتلئ إلى العقل المنفتح:

كانت نظرة الفلاسفة القدماء للعقل على أنه بما أودع الله تعالى فيه من مبادئ وإمكانات فطرية، قادر على إنتاج المعرفة، ومن هنا في نظري نشأ ذلك التقديس المبالغ فيه للذكاء والتفوق الذهبي، هذا التقديس الذي مازال منتشراً في الثقافة الشعبية إلى اليوم. في القرن التاسع عشر تعرضت العلوم الحديثة إلى أزمة داخلية، نتج عنها نوع من المراجعة لتصورات الفلاسفة والعلماء عامة للعقل، وانتهت تلك المراجعة أو المراجعات إلى أن العقل ليس عبارة عن بنية قبلية ثابتة وسابقة على كل معرفة، وإنما هو عبارة عن أداة لإنتاج المعرفة، لكنها تتسم بدرجة من السيولة تجعلها تتفاعل وتنمو كلما اكتسبت وكلما أنتجت المزيد من المعرفة، وعلى هذا فعقل الواحد منا عبارة عن حصيلة للمواهب والإمكانات الذهبية التي حباها به الخالق سبحانه وحصيلة للمعارف التي يحوزها بالإضافة إلى أشكال

النمو والتغيير الذهني التي تحدث بسبب تشغيل العقل وإعماله.

لدينا شيء آخر خطي بنظرة جديدة، وهو قوة الذاكرة التي يتمتع بها بعض الناس والمخزون المعرفي الضخم الذي تحتويه أدمغتهم، فقد كان الناس في عهود الأمية السحيقة يمّجدون الذاكرة وكثرة الحفظ لأن الشيء الذي لا يتمكن الإنسان من حفظه سيضيع منه إلى غير رجعة، لكن الأمر اختلف بعد انتشار الكتابة، لأن الكتابة نقلت المعرفة من وعاء الزمان إلى وعاء المكان، ويستطيع المرء اليوم بضغطة زر الحصول على المعرفة والمعلومة التي يتطلع إليها مما أفقد الذاكرة القوية الكثير من أهميتها.

عليَّ أن أشير هنا إلى أن أدمغتنا حتى تعمل بشكل جيد تحتاج إلى امتلاكنا كمية حسنة من المعلومات والقواعد المتنوعة، ومما لا شك فيه أن الفقيه الذي يحفظ القرآن الكريم وبع مئات من الأحاديث ومئات أخرى من أقوال أهل العلم، سيظهر نوعاً من التفوق في الاجتهاد الفقهي وفي تقرير المسائل لطلبة العلم، لكن المراد هنا هو أن كثيراً من طلاب العلم ظنوا أن ما لديهم من محفوظات يمنحهم تفوقاً مطلقاً على الأقران، وهذا ليس بصحيح، بل إن من الشاهد أن كثيراً ممن غرفوا بكثرة الحفظ لم يبدعوا في تخصصاتهم، ولم يظهروا براعة في التحليل المنطقي أو حل المشكلات أو المحاكمة العقلية أو تجديد العلوم... ومن هنا نقول: إننا في عصر الحاسبات الشخصية الملازمة للحركة اليومية للبشر وفي عصر (جوجل) و (ياهو) والعديد من محركات البحث تراجعت أهمية قوة الذاكرة وغزارة المحفوظات إلى حد كبير، وتوجهت الأنظار إلى البنية العقلية بما تملكه من مبادئ منيرة ومهارات عالية.

العقل الخاوي من المعرفة والعقل المتخم بالمعرفة لكنه مغلق، ومعزول عن الواقع، كلاهما ليس مطلوباً لزماننا، ولا ينفعنا في معالجة أزماننا. العقل الخاوي من المعرفة يعجز عن الإبداع. ويعجز عن العمل بطريقة صحيحة، والعقل المغلق عقل تقليدي جامد مرتبط بمعارف قديمة، بعضها ما زال يحتفظ بصلاحيته، وبعضها اعتراه التقادم والنسخ، فتحول إلى عبء على العقل أو عائق عن التفكير الصحيح ؟

ما العقل المنفتح ؟

١- العقل المنفتح هو عقل مستعد للنظر في مقولات المخالفين له لاحتمال انطوائها على شيء من الحق أو الصواب.

٢- صاحب العقل المنفتح يعرف الرجال بالحق على حين أن صاحب العقل المغلق يعرف الحق بالرجال، وشتان ما بين هذا وذاك.

٣- صاحب العقل الممتلئ بالمعرفة يشبه (الصيدلاني) الذي يقوم على حفظ الأدوية في مخزنه، أما صاحب العقل المنفتح، فإنه يشبه الطبيب الذي يشخِّص الداء ويصف الدواء، ورحم الله أبا محمد الأعمش حين قال للإمام أبي حنيفة النعمان: أنتم الأطباء ونحن الصيادلة حيث إنه كان محدثاً على حين أن أبا حنيفة كان فقيهاً أصولياً مجتهداً.

٤- صاحب العقل المنفتح لا يتمسك بأفكاره وطرق تفكيره القديمة لأنه يعرف بدقة أن الحقيقة النهائي لا تسفر عن وجهها إلا على سبيل التدرج، ويعرف أن الإنسان قد يتخلى عن كثير من الأفكار التي كانت عزيزة عليه في يوم من

الأيام، وما ذلك إلا لأن صحتها نسبية.

٥- صاحب العقل المنفتح يؤمن قادر على التكيف مع الأفكار الجديدة، لأنه يعرف أن الخبرة البشرية تتراكم، وأن الكشوفات العلمية الجديدة قد تنسف كثيراً من المفاهيم والمعتقدات القديمة.

٦- صاحب العقل المغلق ينفذ إلى الواقع وينظر إلى المعطيات الجديدة من خلال العقل الجمعي السائد، أو من خلال النظرة الاجتماعية المهيمنة على الحياة العامة، لكن صاحب العقل المنفتح ينفذ إلى الواقع من خلال منهجيته ومحاولاته الخاصة، وذلك ليقينه بأن التيار العام في المجتمع ليس راشداً، وبالتالي فإن مسايرته والاستسلام له يشكل عائقاً كبيراً أمام التحديث والتطوير المطلوب.

٧- صاحب العقل المغلق يعتقد أن الإبداع مرتبط بالذكاء والموهبة أكثر من أي شيء آخر، ولهذا يعتمد في فهم الأشياء وفي الإيداع والاختراع على ما لديه من ذكاء وفطنة وقدرات عقلية فذة، أما صاحب العقل المنفتح فإنه يقدر الموهبة، ولا شك لكنه يعتقد أن الإبداع مرتبط بالبحث العلمي المنهجي أكثر من ارتباطه بأي شيء آخر.بقي أن نقول: إن بناء العقل المنفتح يكون من خلال الحوار وإثارة الأسئلة ومن خلال مشاركة الآخرين في الوصول إلى الحقيقة واكتشاف المجهول.

٥-الأصدقاء النوعيون:

لماذا يبحث الناس عن أصدقاء جيدين ؟

هذا سؤال طرحته على نفسي، ووجدت أن الناس يفعلون ذلك بحثاً عن

المتعة الروحية التي يجدونها حين يشعرون بنوع من التوافق الروحي والعقلي مع الآخرين، أو أنهم يبحثون عن الأصدقاء طلباً للفائدة والمنفعة المادية، أو من أجل الاثنين معاً.

سؤال آخر طرحته على نفسي، هو: من هم الذين يؤلفون الكتب؟ وقد وجدت في الجواب على هذا التساؤل على أن معظم المؤلفين لا أقول طبعاً: كل المؤلفين يمثلون خير ما في زمانهم على المستوى الروحي والخلقي والثقافي والعقلي، وينقلونه للأجيال القادمة، ومن هنا فإن القراءة تعني التواصل مع أفضل ما تركه لنا الأسلاف من فهم وخبرة ومعرفة ومعانٍ سامية...

نحن اليوم نعاني من مشكلة حقيقية في مسألة القراءة، وأنا دائماً أقول: إن أخطر المشكلات تلك التي تستقر في عقلنا الباطن، لتتوارى عن الإدراك وبالتالي يكون علاجها صعباً أو بطيئاً، وأني أعتقد أن من أخطر ما طرأ على الوعي العميق لجيل الآيباد وتويتر والفيسبوك هو التساؤل الخفي:

لماذا نقرأ ؟

نعم لماذا نقرأ ونحن نستمتع ونستفيد من خلال التواصل مع الأصدقاء الحقيقيين والافتراضيين على وسائل التواصل الاجتماعي ؟

هذا على حين أن الأجيال الماضية كانت تقول: لماذا لا نقرأ مقرعة ذواتها على التقصير في القراءة ؟!.

الإسلام في حركته الإصلاحية الكبرى يراهن على شيئين: الوعي والضمير على حين أن الطغاة والمجرمين يراهنون على الجهل والغفلة وضعف الخبرة وفساد

الضمائر، ولما كانت القراءة من أهم مصادر تكوين الوعي والحاسّة الأخلاقية، ومن أهم عوامل البناء لفضائنا الروحي، فإنه يكفي الشغوفين بالقراءة وأصدقاء الكتاب فخراً أن يكون معقداً لآمال المصلحين، وقد افتتحت أعمال النبوة لدى نبينا ﷺ بتوجيه الرب جل وعلا له بقوله: (اقرأ)!.

ما كتب حول القراءة كثيراً جداً، لكن الانتفاع به محدود، لماذا ؟ لا أدري بالضبط، ولكن أظن أن الأمية وضحالة المعرفة السائدتين في معظم البيوت هما المسؤولتان عن ذلك، إذا إن القراءة نشاط مميز جداً، وخاص جداً ولهذا الطفل لا يتعلمه كما يتعلم الكلام أو المشي، وإنما يحتاج إلى عناية ورعاية فائقة، وهذا هو السر الكامن وراء الظاهرة الإنسانية الشائعة: كل الناس يتكلمون، لكن بعضهم فقط الذين يجيدون القراءة والكتابة!.

يأتي التعليم الرديء، والممل والثقيل ليكون ثالثة الأثافي في مشكلة الإعراض عن القراءة ومجافاة الكتاب، نعم إن التعليم الرديء يجعل الكتاب بالنسبة إلى الطلاب بمثابة العدو، ويمكن أن نضيف إلى كل هو أن الكتاب العرب والمسلمين الذين يجيدون الكتابة الجاذبة، وينتجون الكتاب الشائق هم دائماً قليلون، والنتيجة المزعجة لكل هذا هي: القليل من القراء الجيدين والقليل من الكتب الجاذبة للقراءة!.

التحدي الذي يواجهنا هو جعل القراءة من جملة العادات اليومية لصغارنا وكبارنا، وجعل ارتياد المكتبات الخاصة والعامة أشبه بارتياد المطاعم والحدائق وأماكن التسوق، وهذا التحدي من أكبر التحديات التي تواجه كل الأمم.
نقاط أساسية:

١- إذا أردنا لعقولنا أن نفكر بطريقة جيدة، فيجب أن نملأها بالمواد المعرفية الجيدة، إن الدماغ مثل الرحى أو الطاحون، حيث لا يمكن للدقيق أن يحمل خصائص دقيق القمح، ونحن قد وضعنا في الطاحون العدس أو البقول... أما الذين لا يقرؤون فإن عقولهم عند التفكير في أي مسألة تشبه إلى حد بعيد الطاحون التي لم نزودها بأي نوع من الحبوب، بل وضع العقل أسوأ لأنه حينئذ ينتج الأوهام والخيالات الفاسدة، وليست الطاحون كذلك.

٢- لدينا ما لا يحصى من الأفكار التي تزين القراءة للناس وآلاف المناشدات التي تحثهم عليها، ولكن النتائج باهتة بل مخيبة للآمال، والسبب فيها أظن يكمن في أن العالم لا يرتقي بالأفكار وإنما بالنماذج، ومن الواضح أن القراء النهمين في مجتمعاتنا لم يستطيعوا تكوين الكتلة الحرجة التي تجعل الناس يحبون القراءة، ويوبخون أنفسهم عند التقصير فيها، ولذلك فإن المسؤولية في هذا تقع على الصفوة التي لم تقم بدورها الريادي في هذا الشأن.

٣- مع أن القراءة في الأساس نشاط غير جذاب، ولاسيما ذلك النوع من القراءة الذي يقوم على التحليل والاستنتاج وتلخيص أهم الأفكار ومناقشة الكاتب... مع كل هذا فقد أوجد التقدم التقني المزيد من المنافسين للكتاب، ويأتي التلفاز وموقع التواصل الاجتماعي والألعاب الإلكترونية ومقاطع اليوتيوب على رأس المنافسين للكتاب والنشاط القراءة، ولهذا فإن البداية في جعل القراءة عادة يومية لنا، تتمثل في ميثاق غليظ نأخذه على أنفسنا بالابتعاد عن كل ما ذكرناه ساعتين في اليوم على الأقل من أجل القراءة في الكتب القيمة، ومن أجل التفكير والتواصل مع الأهل والزملاء[١]

---

١ من الأشياء اللافتة والمعبرة ما ذُكر في الأيام الأخيرة من أن شاباً شرط على المدعوين لحضور زفافه عدم إحضار جوالاتهم معهم!!

٤- معظم الناس يقرؤون من أجل التسلية وملء الفراغ، وهذا اللون من القراءة لا يخلو من فائدة لكن المطلوب ممن يعدون أنفسهم لدور مميز في النهضة والإصلاح والتغيير أن يقرؤوا من أجل إنتاج المعرفة والإضافة إليهم، فإذا فعلوا ذلك كانوا أفضل القراء، لأنهم يعرفون بالضبط ما الذي يختارونه للقراءة وكيف يقرؤون. فإذا عجز المرء عن ذلك فليحرص على أن يقرأ من أجل توسيع قاعدة الفهم لديه ومن أجل رفع مستوى محاكمته العقلية، وهذا يحتاج إلى القراءة في كتب متميزة وجادة ومركزة، كما يحتاج إلى قراءة.

٥- المهم في القراءة هو الكيف وليس الكم، المهم ليس عدد الكتب التي نقرؤها، ولا الساعات اليومية التي نقيها في صحبة الكتاب، المهم هو نوعية الكتب التي نقرؤها وكيفية قراءتنا لها. هذا يعني أن نركز على الحصيلة الفكرية والمعرفية التي نمتلكها بسبب نشاط القراءة، وقد قال أحد الفلاسفة: أن تقرأ كتاباً جيداً ثلاث مرات خير من أن تقرأ ثلاثة كتب جيدة! لماذا هذا لأن تكرار قراءة الكتاب الجيد يعني أننا نستمتع بقراءته، وأننا قد عقدنا العزم على استنفاد كل ما فيه من معان ومفاهيم وخيرات ثقافية.

الكتاب الجيد ليس هو الكتاب السهل، الكتاب الجيد هو الذي نعاني في قراءته، لأننا إذا فهمنا بسهولة كل ما نقرأ، فهذا يعني أننا لا نطلع على شيء جديد، وإنما نتذكر شيئاً عرفناه من قبل.

الكتاب الجيد هو الذي يرتقي بقراءته، ويصعد به في فضاء المعرفة الرصينة، وحتى يفعل ذلك، فينبغي أن يكون فوق مستوى قارئه، وأنا شخصياً أفضل

الكتاب الذي أفهم ٧٠٪ منه على الكتاب الذي أستوعبه جميعاً.

٦- الهدف الأسمى للقراءة الجادة هو تغيير نمط التفكير لدينا وهز قناعاتنا الموروثة ببعض الأشياء إلى جانب جعلنا نتواصل مع مستجدات عصرنا، وهذا لا يتحقق إذا لم نملك فعلاً ما نقرؤه ونتفاعل معه، وإن أفضل طريق إلى ذلك هو أن نفكر فيما قرأناه، ونعمل على تحليله وتوضيح ما يعنينا منه، إلى جانب محاورة الأصدقاء والزملاء فيه، لأن الأفكار لا تنضج إلا إذا لاكتها ألسنة المناظرة. التفكير فيما نقرأ يعني ببساطة أننا نعمل على إدخاله في أنساقنا الفكرية والسماح له بخلخلة تلك الأنساق وتطويرها وتخليصها من بعض المفاهيم الخاطئة، ولهذا فقد اقترح بعضهم على من يقرأ ساعة أن يفكر فيما قرأه ثلث ساعة من أجل تمثل الحصيلة المعرفية الجديدة في مركبنا العقلي.

٧- في يوم كل واحد منا ساعة ذهبية مميزة، هذه الساعة تكون فيها درجة الصفاء الذهني أعلى، وتكون الصوارف هم القراءة المركزة أقل، وللناس في تحديد هذه الساعة مذاهب شتى، فمنهم من تكون ساعته الذهبية بعد العصر أو بعد المغرب أو بعض العشاء، ومنهم من تكون ساعة الذهبية قبل الفجر أو بعده.... لا مشكلة، المهم بالنسبة إلى كل واحد منا هو اكتشاف تلك الساعة والاستفادة منها. أنا شخصياً اكتشفت منذ مدة بعيدة أن ساعتي الذهبية بعد الفجر حيث الراحة التامة للدماغ وحيث تنعدم الاتصالات والطوارئ والعوارض، ولهذا فإني أخصص هذه الساعة في معظم الأيام للكتابة والتفكير وقراءة النصوص الصعبة حيث تختلط رائحة القهوة بالرائحة المميزة للكتب. ساعة واحدة مميزة وفريدة قد تعدل في بركنها وعطائها نصف يوم أو أكثر!.

جربوا واكتشفوا واغنموا...

إذا كان لي أن أعدد أهم ما على مسلمي القرن الحادي والعشرين التفكير فيه والاهتمام به، فإنني لا شك سوف أجعل منه الاهتمام يجعل القراءة تقليداً من تقاليد حركتنا اليومية تنظيمنا لأوقاتنا، فحضارتنا افتتحت بـ (اقرأ)وتستأنف أيضاً بـ (اقرأ) وتستمر بها.

٦- جيل مبدع:

عصرنا هو عصر الذكاء والقيادة والإبداع من غير ريب، ولا شك والله عز وجل خلق الإنسان على أنه كائن مبدع، يتخيل، ويقدر المخاطر، ويتجاوز ظروفه... وهذا الإنسان هو أيضاً (كائن مستهلك) يستهلك النظم والأفكار والأشكال والطرز، وقدرته الهائلة على الاستهلاك تعد أكبر محرِّض له على الإبداع، كما هو شأن كثير من الأفراد والشعوب.

قد عاش الناس دهوراً وهم يعتقدون أنهم ينقسمون إلى قسمين قادرين على الإبداع وعاجزين عنه، وقد استغرق تغيير هذا المعتقد (عند شريحة منهم طبعاً) وقتاً طويلاً حيث تبين أن البارئ جل وعلا قد منح كل واحد منا نوعاً من التفوق في دماغه، والمشكلة دائماً في المعوقات وضعف الاهتمام والتدريب، وقد أثبت (هوارد جاردنر) عبر نظرية (الذكاءات المتعددة) حيث تقوم هذه النظرية على معتَقد أن كل الأطفال يولدون ولديهم كفاءات ذهنية متعددة، منها ما هو قوي، ومنها ما هو ضعيف، ومن شأن التربية الفعالة والرشيدة، أن تنحي ما لدى المتعلم من كفاءات ضعيفة، وتعمل في الوقت نفسه على زيادة قوة القوي منها، وإن من

أفضل ما جاءت به هذه النظرية هو تهميش العوامل الوراثية التي طالت صدت عن بذل الجهد مع كثير من الأبناء بحجة عدم وجود موهبة لديهم!.

وضع العالم الإسلامي في تسجيل براءات الاختراع سيئ للغاية، وتأتي الدول العربية في المكان الأسوأ، حيث تشير تقارير المنظمة العالمية للملكية الفكرية (w1p0)لعام ٢٠١٢ إلى أن الدول العربية مجتمعة سجلت (٤٩١) براءة اختراع على حين أن اليهود في فلسطين سجلوا (١٣٧٧) براءة اختراع!

أمريكا والتي يقل عدد سكانها عن الدول العربية مجتمعة سجلت في العام نفسه (٥١٢٠٧) وسجلت كوريا الجنوبية والتي لا يزيد سكانها على ١٧٪ من سكان الدول العربية (١١٨٤٨) براءة اختراع[١]

أرقام محزنة ومفزعة، لكن لعلها تشكل صدمة للوعي العربي الغافل والشارد عما يجري في العالم حوله!.

إذا كان التباين في الإبداع وبراءات الاختراع ليس ناجحاً عن فروقات في الذكاء الموروث، فهذا يعني أن المشكلة تعود إلى معوقات نفسية وتربوية ومفاهيمية وبيئية قبل أي شيء آخر:

١- إن الإبداع هو عملية، يستطيع الفرد من خلالها الوصول إلى أفكار أو منتجات جديدة، وقد يتجلى الإبداع في الربط بين بعض الأفكار أو اكتشاف العلاقة بين بعض الأشياء، وقد كشف الجذور والأسباب لبعض الظواهر أو في تطوير بعض المنتجات.. والحقيقة أن ما يصدر عن المخ البشري وعن اليد البشرية مما يسمى إبداعات واختراعات يفوق الحصر، وكثير منه لا يتم تسجيله

١ الاقتصادية: العدد ٧١٠٠ في ٢٠/ ٣/ ٢٠١٣.

لدى أي جهة من الجهات، وإن الإبداع قد يتجلى في التعامل مع ابن كسول أو في استقبال أم غابت عن أنظار أبنائها عشرين سنة أو في التعامل مع الضياع في الصحراء أو في التعبير عن امتنانك لشخص أنقد حياتك.. وعلى هذا فالمبدعون فعلاً كثيرون جداً.

٢-الأصل في كل إنسان أن يكون مبدعاً، هكذا يقرر الفهم الجديد لمسألة الإبداع، فإذا وجدنا أن ٩٥٪ من الناس لا يبدعون، ولا يضيعون للحياة أي جديد، فإن هذا يعني أن هناك عائق أو عوائق من نوع ما، حالت دون ذلك، وأعتقد أنه يأتي على رأس القائمة البيئةُ التي يعيش فيها الإنسان، حيث إن البيئات التي تسود فيها الأمية أو ضحالة الثقافة والبيئة الفقيرة المرهقة تكون حاضنة لعدد من معوقات الإبداع مثل انخفاض سقف الطموحات، والخوف من نقد الآخرين، والخوف من الفشل وعدم الثقة بالنفس... أضف إلى هذا الوهم المفاهيمي الموروث بالنسبة إلى الإبداع حيث يدل المثل الشعبي: (الديك الفصيح من البيضة يصيح) والمثل الشعبي: (المكتوب يُقرأ من عنوانه) على أن الإبداع هو شيء وراثي، أي أنه مرتبط بالذكاء والتفوق الذهني، وهذا من الأوهام التي تتناقلها الأجيال، نعم إن الأغبياء لا يكونون مبدعين ولا مخترعين، ولكن متوسط الذكاء قد يكون مبدعاً عظيماً إذا كان لديه قدر كبير من قوة الإرادة والرغبة في البحث العلمي والصبر عليه مع محفزات أخرى.

معوق آخر من معوقات له أيضاً علاقة بالبيئة، وهو اكتشاف الموضة، حيث إني أشرت إلى أن لدى كل واحد منا نقطة نفوق لو تمكن من اكتشافها ورعايتها، فإنه قد يصبح في عداد العظماء أو المبدعين الكبار، والسؤال هو: من الذي سيكتشف تلك الموهبة ؟

هنا نواجه أيضاً معضلة كثيراً ما تكون من منتجات البيئة، إذ إن المأمول في هذا هو أن يقوم الأبوان أو الإخوة الكبار والأصدقاء المقربون بلغت نظر الطفل أو الفتى إلى ما لديه من عبقرية في مجال من المجال، ومما لا شك فيه أن للمدرسة دوراً مهماً في هذا تمارسه من خلال ملاحظات المدرسين ومن خلال الدرجات التي ينالها الطالب في الامتحانات، لكننا نعود فنقول: إن الأسر التي يغلب عليها الجهل والأمية والمدارس التي تقدم تعليماً رديئاً، إنها جميعاً لا يساعد على اكتشاف المواهب، كما أنها لا تساعد على تنميتها ورعايتها، وأعتقد أن تحسن مستوى الأسر على الصعيد المعرفي ووجود بعض المدارس الجيدة سوف يساعدان على التخفيف من هذه الأزمة.

٣- ذُهان السهولة وذُهان الاستحالة، كلاهما يعوق الاتجاه نحو الإبداع، فنحن حين نعتقد أن كتابة نص إبداعي أو حل مشكلة بطريقة إبداعية، أو تقديم منتج يخترق ما لدينا من خبرة ومعرفة متعلقة به...

إذا كان نعتقد أن ذلك ميسور ومتحقق، فهذا يعني أننا لا نعرف حقيقة الإبداع وتكاليفه الكبيرة، وإذا كنا نعتقد أن الإبداع بالنسبة إلى معظم البشر ونحن منهم هو شيء بعيد المنال وأقرب إلى المستحيل، فإننا لن نسلك سبله، ولن نحاول الوصول إلى شيء إبداعي مهم. إذن طريق الإبداع مفتوح أمام معظم البشر، لكنه وعِر وطويل، لكن عواقب السير فيه عظيمة وممتعة، وأي شيء أعظم سعادة من أن تشعر أنك قدمت شيئاً أرشد أو أفاد، أو جعل حياة الملايين أسهل ؟.

٤- قد تكون نقطة التفوق لدى واحد منا عبارة عن موهبة كبيرة في قوة الذاكرة أو سعة الخيال أو ما يسمى الذكاء اللغوي أو الرياضي أو العاطفي أو الاجتماعي أو النقدي... فإذا تمكن من اكتشافها فقد يكون المطلوب منه بعد ذلك منه هو عزيمة

مذهلة وإرادة صلبة وقدرة استثنائية على المداومة على البحث والاهتمام والعمل والمتابعة في اكتشاف شيء أو تطويره... نعم إن الأشخاص العاديين يظنون أنهم استنفدوا كل الإمكانات وكل الآفاق المتاحة بالنسبة لما يبحثون فيه، ومن ثم فإن ما يصلون إليه يكون عادياً ومتوقعاً، لكن المؤهلين لأن يكونوا مبدعين عظماء، ليسوا كذلك، إنهم يعتقدون أن الإبداع يحتاج إلى أن ندخل إلى أذهاننا الكثير من المعارف المتعلقة بالشيء الذي عليه، حيث إن (الكيف) هو الابن الشرعي لـ (الكم) كما أنه يحتاج إلى سؤال الخبراء والمتخصصين والحوار معهم، ويحتاج مع هذا أو ذاك إلى عدم القناعة بما وصلنا إليه من نتائج والاعتقاد بأن هناك احتمالات لم نخبرها، وأفاقاً لم نلمسها، وجهوداً لم نبذلها، وتجارب لم نقم بإجرائها، ولهذا فإن علينا الاستمرار في العمل مدة أطول. أديسون المخترع الأشهر[١] قال حين سُئل عن العبقرية: إنها ١٪موهبة و٩٩٪ عرق جبين. نعم إن بلوغ الأهداف العظيمة يحتاج إلى صبر عظيم على بذل الجهد، ويحتاج كذلك إلى صبر على تذوق مرارة الفشل والاصطدام بالجدران العالية والأبواب المغلقة، وهذا شيء مهم للغاية، فنحن لا نرى في الحقيقة إلا ثمار المحاولات الناجحة، وما يرافقها من نشوة النصر، لكن إلى جانبها عشرات الألوف من النتائج السلبية والمحاولات الفاشلة التي كلفت الكثير من المال والجهد والوقت، ولكن لا بأس فالعظماء يعتقدون أن الفشل هو طريق النجاح.

٥- المبدع يعمل في سياق جديد، سياق قد يكون وحيداً لم يعمل فيه أحد من قبل، ولهذا فإنه يحتاج إلى الرؤية الاستراتيجية، إنه يعمل على الإبداع في حقل من الحقول، يعرف ما تكلفته من الجهد والوقت والمال، وهذا يعتي أنه مقتنع

١ سجل أديسون ما يزيد على ألف اختراع، أشهرها المصباح الكهربائي الذي يستمتع به اليوم مليارات البشر.

تماماً بما يفعل، وقد بذل جهداً في تحديده، يعد التركيز في وقت مبكر من العمر من الأمور المهمة، وهنا يأتي دور التوجيه الأسري وتوجيه المدرسين في المرحلة الابتدائية والمتوسطة، وبما أن معظم الأسر لدينا لا ترغب في القيام بهذا الدور،أو أنها ترغب ولا تعرف ما الذي عليها القيام به، فإن الخيار الأمثل قد يكون البحث للطفل عن روضة ومدرسة جيدة؛ لأن المدرسة الجيدة توفر بيئة تساعد على الإبداع واكتشاف المواهب.

كنت ومازالت أقول: إن من المهم أن يجعل الواحد منا نحواً من ٦٠٪ من قراراته ومطالعاته وجهده وتفكيره وتجاربه في علم أو مجال أو مساق يعشقه، ويرتاح لبذل الجهد فيه، لأن هذا أكبر مساعد على الإبداع؛ لأن الدماغ البشري العظيم يتعلم مهارات التفكير الاستراتيجية من خلال التجربة وعن طريق رؤية أعداد هائلة من الأمثلة والكثير من المعارف المتخصصة، إنه يقوم بترجمة كل ذلك إلى قواعد ومبادئ وتوجيهات ثم توظيفه في اتخاذ القرارات الاستراتيجية الصحيحة والمشروعات الإبداعية.

كثيرون من تذهب حياتهم هباءً بسبب اتساع مساحات اهتماماتهم، إنهم يفكرون في كل شيء، ويقرؤون في كل شيء، والنتيجة هي معرفة واسعة لكنها مشتتة وغير موثوقة بالقدر الكافي، وهذا لأن الإبداع يحتاج إلى التركيز بعيد المدى، وإلى نوع من الذهول عن كثير من الأشياء التي تشغل الآخرين.

لتنمية الإبداع والاختراع العديد من التقنيات، ولا أريد هنا الحديث عنها لأنها لا تعنيني كثيراً في هذا الكتاب، ولأنها كثيرة أيضاً، لكن أود الإشارة إلى اثنين منها:

الأولى: هي التفكير على عكس المراد والمطلوب، فنحن مثلاً نريد من الناس أن يُقبلوا على قراءة الكتب، فلنشغَل أدمغتنا في وسائل التي تصد الناس عن القراءة، ونحن نريد لأبنائنا أن يكونوا جادين في مدارسهم، فلنفكر إذن كيف نجعل منهم طلاباً كسالى ومهملين، وهكذا... إن هذه التقنية ترتكز إلى ما هو معروف عن قدرة العقل البشري على اكتشاف السلبيات والنقائص أكبر بكثير من قدرته على اكتشاف الإيجابيات. نكتشف ما يوصلنا إلى ما لا نريد، ثم نفكر في الوصول إلى معرفة ما هو مضاد له من المفاهيم والأساليب والأدوات التي تساعدنا على بلوغ ما نريد على نحو مبدع!.

الثانية: هي تغيير الاتجاه، والنظر إلى الأمور من زاوية جديدة، مثل أن ننظر إلى المنحة على محنة ومشكلات، فالمال مثلاً منحة وشيء مرغوب ومطلوب، وعلينا أن ننظر إليه على أنه مشكلة، ووجود الطفل العبقري في الأسرة نعمة كبرى، وعلينا أن ننظر إليه على أنه اختيار قاسٍ وصعب... فقد المرء لعمله الذي يكسب رزقه، وفقده لذراعه في حادث سيارة وخسارة صفقة تجارية كبيرة... هذه محن ومشكلات، ونحن نريد أن ننظر إليها على أنها فرص وبوابات لحياة جديدة سعيدة وواعدة.

إن هذه النظرة تخرجنا من الصندوق الاجتماعي، وتمنحنا الحرية لنفكر خارج رغباتنا وطموحاتنا، هذا يجعلنا فعلاً على طريق الإبداع، وكم هو عظيم أن ننشغل باستثمار خسارتنا التجارة في الاستعداد لصفقة أكبر مستفيدين من العبر التي استخلصناها من خسارة صفقتنا الأولى عوضاً عن ندب حظنا والعزوف عن التجارة كلياً ؟!

ومن وجه آخر فإن نظرتنا إلى الملاءة المالية على أنها محنة ومشكلة تساعدنا على أن نتعامل مع المال بطريقة إبداعية، فعوضاً عن الانشغال بالتفكير في كيفية صرفه والترف به، فإننا نفكر في كيفية تنمية بطرق مشروعة وفي كيفية تعميم نفعه والتوازن في أسلوب الاستفادة الشخصية منه.

إن الإبداع هو عمل خارج سياق المألوف، ولهذا فإنه يأتي بنتائج غير مألوفة.

٦- وجود الطفل الموهوب والعبقري نعمة كبرى في الأساس، نعمة له ولأهله ولمجتمعه وأمته، فالعباقرة لدى كل الأمم هي رواد القفزات النوعية في كل المجالات والاختصاصات، ومن هنا فإن الاهتمام بهم بات أحد مقاييس التقدم الحضاري، كما أن إهمالهم بات مؤشراً إلى العيش خارج العصر.

الموهوبون كثيرون جداً وإذا انطلقنا من نظرية الذكاءات المتعددة، فإن لدى كل الأمم فائضاً في الموهوبين يفوق قدرتها على العناية بهم، وهذا هو تفسير ظاهرة كثيرة الموهوبين وقلة المبدعين والمخترعين!

البداية في رعاية الموهوب تتمثل في اعتباره من ذوي الحاجات الخاصة، مما يستدعي عناية غير عادية، وبعد ذلك تحتاج الأسرة إلى أن يكون لديها ثقافة تربوية خاصة برعاية الموهوبين، وإن من حسن الحظ أن الكتب والمقالات والتجارب الشخصية المدونة في هذا الشأن تفوق الحصر، وهي تتطلب منا شيئاً واحداً هو الاهتمام.

البيئة الأسرية التي تساعد على نبوغ الموهوب وتحوله إلى مبدع مهمة للغاية، ومواصفاتها معروفة، لكن أود أن أشير إلى شيء مهم هو أن التقدم الحضاري يحتاج إلى الإبداع في كل الفنون والعلوم والمجالات، وإن الخطأ الذي يقع فيه كثير

من الناس أنه يريد مبدعاً مفصلاً على رغباته ومقاييسه، وهذا خطأ كبير لأن مهمة المربي هي رعاية موهبة لا إيجاد موهبة حسب الطلب.

على الحكومة مؤسسات المجتمع والمدارس والجامعات دور كبير في رعاية اكتشاف المبدعين ورعاية المواهب، وإن على كل حكومة وكل مؤسسة اجتماعية أن تنظر إلى كل مواطن على أنه يمكن أن يكون موهوباً، ولعل البداية تكون في اعتماد مقاييس معتمدة للذكاء والإنجاز مما يسمح بالالتحاق المبكر برياض الأطفال والمرحلة الابتدائية وحتى المرحلة الجامعية، ويمكن للجامعات والمؤسسات إقامة النوادي والمنجمات التي تقدم تدريبات متقدمة على حل المشكلات بطرق إبداعية، كما أنها تقدم برامج مبتكرة لتعزيز قدرات الموهوبين في العلوم والتخصصات والفنون المختلفة.

الإبداع لدى كل الأمم يعد واحداً من أهم رهانات التقدم في القرن الحادي والعشرين، ويجب علينا كسب هذا الرهان.

قيم أساسية

القيم هي ما له قيمة عالية وتثمين مرتفع، والأشياء التي نعدها قيِّمة كثيرة في الحقيقة، وأنا هنا لن أتحدث إلا عن القيم التي أرى أننا نواجه مع الامتثال لها مشكلة حضارية، وهي أيضاً ليست قليلة، ولهذا فإني سأتناول بعضها أيضاً وعلى نحو مقتضب، فنحن في هذا الكتيب نشير إلى ما هو مهم وجوهري أكثر من أن نلج في أعماقه وتفاصيله.

في كل شبر مسكون من الأرض قيم موضوعية. يجمع عليها الناس لأن الحياة الاجتماعية من غير ممكنة، والحقيقة أن القيم الكبرى تشير إلى عدد من المعاني الأساسية:

أ- القيم هي البساط الفكري والشعوري الذي يتسع لجميع أبناء المجتمع، فقيم مثل الحرية والمساواة والكرم والشجاعة والوفاء...

تشكل مرتكزات أساسية للتفاهم والتعايش الإنساني، وإذا تصورنا مجتمعاً

خالياً من هذه الفضائل، فإننا نتصور غابة تسكنها الوحوش.

ب- عبارة عن مرشدات نسترشد بها في هذه الحياة، فنحن نربي أطفالنا في البيوت والمدارس على أهمية بر الوالدين والإحسان إلى الجار والوقوف إلى جانب المظلوم... ونحن من خلال التربية نوجه أبناءنا إلى أن يكون بارين ومحسنين ونبلاء.

ج- القيم أيضاً معايير نحكم من خلالها على سلوكاتنا وسلوكات الآخرين، معايير تحبذ نوعاً من القيم، وتنفِر من أضداده، فالكريم ممدوح ومحترم وقدوة، والبخيل مذموم وناقص، ويستحق نوعاً من النبذ الاجتماعي.

بهذا يتبين أن القيم والقوانين تشكلان معاً ركائز أساسية لأي حياة اجتماعية.

١- العدل:

هو القيمة العليا التي تؤمِن للناس المعايير التي تساعدهم على الحفاظ على حقوقهم ومعرفة واجباتهم، إنه القيمة التي يستحيل على الناس سلوك سبل الحضارة والاستمتاع بالحياة من غير وجود قدر وافر فيها،وهذا القدر يعد مؤشراً قوياً لمدى ما يتمتع به المجتمع من خيرية واستقرار وتحضر.

إن قيمة العدل تبرز على نحو واضح من خلال تنويه القرآن الكريم عنه بقربه بالكتاب وبما يحقق العدل بوصفه أداة تقليدية- وهو الميزان حيث قال جل وعلا: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس

بالقسط... ﴾[1].

العدل والإحسان والشجاعة والكفاءة في الأداء والأمانة قيم عظيمة تشكل جزءاً عزيزاً من التراث الأخلاقي لكل الأمم، ونحن المسلمين حين نتحدث عن تاريخنا السياسي، فإننا نشعر بالفخر حين نستعرض النماذج الراقية للعدل، ونشعر بالخزي والخذلان حين نستعرض صور الظلم الاجتماعي في كثير من مراحل ذلك التاريخ.

للعدل كثير من التعريفات، ولعل أبسطها هو أنه إعطاء كل ذي حق حقه، ولكن المشكلة الدائمة تكمن في تحديد ذلك الحق وتحديد مستحقيه.

العدل يعني أحياناً المساواة في الحقوق والواجبات ويعني أحياناً الإنصاف، ويعني في بعض الأحيان إزالة الفوارق المصطنعة والفروق الواسعة بين الأفراد والمجموعات والمناطق، تلك الفوارق التي نشأت بطرق غير مشروعة.

إن قيمة العدل ثابتة وراسخة رسوخ الجبال، لكن الصور التطبيقية للعدالة متغيرة لأنها مرتبطة بالتقدم الحضاري، فكلما درج الناس في سلم الحضارة أكثر اتسع مفهوم العدل، وكثرت صور تطبيقه وممارسته ونحن نلاحظ أن الناس يتحدثون عن العدل بين المناطق والعدل بين الأجيال على صعيد التنمية والتعامل مع الثروات وفرص الارتقاء الاجتماعي... بل إن من الباحثين من يتحدث عن إعادة الفرد للمنافع التي حصل عليها إلى المجتمع عن طريق التبادل الأخلاقي الاجتماعي بين أبناء المجتمع، وهذا الإرجاع ينبغي أن يتم في إطار العدل

---

١ سورة الحديد: ٢٥

والإنصاف. من العدل كذلك ألا يأخذ الفرد، ألا يعطي كذلك بما يتجاوز حدود المنفعة الشخصية البقية أبناء المجتمع.

نحن لا نطمح إلى أن يكون كل أفراد المجتمع عادلين، ولا نتوقعه، لكن علينا أن نعمل على أن نكون مؤسساتنا عادلة في قواعدها وطرق تسيير الأمور في داخلها وأيضاً في العلاقات التي تقيمها فيما بينها: الأسرة والمدرسة ومجلس الشورى والحكومة ومؤسسة القضاء ومؤسسات المجتمع المدني ودوائر المال والأعمال... كل هذه المؤسسات تحتاج إلى أن تقوم على العدل، وحين يحدث ذلك، فهذا يعني أننا نمتلك قاعدة عريضة دينية صُلبة ومنارة للعدالة.

فلسفة العدل في الإسلام عميقة،وتقوم على حساسيات عالية، وإن مما يلفت النظر ما ذكره بعض شراح السنة من رمزيات رائعة في هذا الشأن، على نحو ما قيل فيما صح عنه Ì من النهي عن أن يقعد الرجل بين الظل والشمس، وما صح عنه من النهي عن أن يمشي الرجل بنعل واحدة، فإما أن يُنعِلهما جميعاً، وإما أن يحفيهما جميعاً من أن ذلك النهي من أجل العدل بين أعضاء الجسد، وهذا على ما يبدو تدريب شخص للمسلم على ممارسة العدالة في أخصّ شؤونه.!

العدل والحرية:

العدل قيمة عظيمة والحرية أيضاً قيمة عظيمة، لكن بينهما نوع من التضاد، فالحرية بما تتيحه من أنشطة ومجالات للحركة وتوسيع لمساحات الخصوصية تدفع في اتجاه، والعدل بما يقتضيه من المشاركة والمساواة والتقارب واقتسام المنافع، يدفع في اتجاه آخر، ولهذا فلا سبيل في حياتنا لحرية مطلقة ولا عدل مطلق،

إن مواهب الناس واستعداداتهم وظروف نشأتهم والمعطيات التي تحيط بهم متباينة، وهذا يعني أن إنتاجيتهم ومواقعهم الاجتماعية ستكون مختلفة، مما يؤسس لنفوذ اجتماعي مختلف، في المقابل يقتضي العيش في مجتمع واحد قيام بعض أفراد المجتمع بشيء من مكاسبهم من أجل الفقير والضعيف وهذه التضحية تتنافى مع المساعي الحرة للناس ومع المكاسب التي تترتب عليها، ومن هنا فإننا نعتقد أنه ليس هناك حلٌ مثالي لهذا التناقض بين جوهر الحرية وجوهر العدالة، وإنما هناك مقاربات وتجارب ناجحة نسبياً، ومن تلك المقاربات ما يقوم به المجتمع من تقييد الحرية الشخصية عبر الأعراف المعتبرة، وما تقوم به القوانين من منع من يمارس حريته من إلحاق الأذى بالآخرين، حيث تنتهي حرية الفرد حين تبدأ حرية غيره.

من جهة أخرى فإن على الدولة بنظمها وقوانينها والقوة التي تملكها مطالب بحماية قيمة العدل من خلال القانون واستخدام القوة لحماية القانون إذا لزم الأمر، كما أن عليها أن تشيع أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية والاقتصادية وقبل ذلك القانونية، حيث يقف الناس في الحقوق والواجبات على أرض واحدة، وحيث يتم توفير فرص الصعود الاجتماعي للجميع دون استثناء بالإضافة إلى توزيع الخدمات الأساسية بين المناطق بالعدل. صيغ العدل وتطبيقاته نامية بنمو البشر وتوسع الحياة المدنية، ولهذا فإن على الأمم الأقل تمدناً أن تستفيد الكثير من غيرها على هذا الصعيد.

كيف نرسخ فضيلة العدل ؟

إذا كان هناك من شيء على مسلمي القرن الحادي والعشرين التفكير فيه

على صعيد هذه القيمة العظيمة، فلن يكون شيئاً سوى التفكير في المبادرات والإجراءات والنظم والآليات والأدوات التي تجعل حياتهم أكثر عدلاً وإنصافاً، فالمهم ليس التنظير ولا الفلسفة، ولكن المهم أن يشعر الناس أنهم أقوى من الظلمة والبقاء، وأنهم يجدون من يحمي حقوقهم، ومن يلجأون إليه في الأوقات الصعبة، ولعل من أهم ما يحقق ذلك الآتي:

١- الإحسان: في آية الفصائل ذكر الله تعالى الإحسان بعد العدل: ﴿ إن الله يأمر بالعد والإحسان وإيتاء ذي القربى... ﴾[1] وذلك لمتانة العلاقة بين العد والإحسان... وتقديم العد على الإحسان في الآية الكريمة ذو دلالة بالغة، إذ إن الأساس الذي تقوم عليه الحضارات ليس الإحسان، وإنما العدل، أما الإحسان وكل أعمال الخير، فإنها تتويج للعدل. فبل أن تتصدق عليَّ فأعطني حقي، وبعد ذلك فلك أن تتصدق، ولك ألا تفعل.

العمل الخيري هو استدراك على النظم التي تحقق العدالة، فالنظام مهما كان متقناً يظل قاصراً، ويحتاج إلى تكميل وترميم، وإن من شأن الإحسان أن يفعل ذلك، لكن إذا اشتد قصور النظم فإن الأنشطة الخيرية تصبح عاجزة عن سد الثغرات، ففي بلد يجتاحه الفساد والبطالة وشح الموارد يكون دور الإحسان فيه تلطيفياً ليس أكثر، لكن الخبر الجيد هنا هو أن المزيد من العدالة يدفع في اتجاه المزيد من الإحسان والبذل من أجل الآخرين.

٢- محاربة الفساد: في ظل النمو السريع وتعقد كل جوانب الحياة تكون كل الظروف مهيأ لانتشار الفساد وتخريب الذمم وضياع الحقوق، ومن هنا فلا بد

---

١ سورة النحل: ٩٠

من بذل الكثير من الجهود الرسمية والشعبية من أجل محاصرة الفساد وحصره في أضيق الزوايا، وإن تقليل الدور التنفيذي للحكومة وتقليل عدد موظفيها يساعد على ذلك مساعدة كبيرة.

٣- حرية التعبير وإتاحة مساحات واسعة للنقد والنقد الذاتي تساعد على تحقيق العدل؛إذ إن خوف من المظلومين من فضح الظالمين وخوفهم من المطالبة بحقوقهم هو الذي يؤدي إلى شيوع الظلم والعدوان.

٤- نزاهة القضاء واختيار أفضل الرجال وأصلحهم وأنشطهم مما يساعد على نصب موازين العدل، وإن تحصين القضاء وضمان استقلاله شرط جوهري للقيام بدوره المنشور.

٥- يجب أن يصبح العمل هو الأساس للقيمة الاجتماعية، أي أن يحترم الإنسان على مقدار اجتهاده وكسبه وإنجازه وعطائه بعيداً عن اعتبارات الجاه والنسب والمال.

٦- ترسيخ مبدأ (تكافؤ الفرص) على صعيد الخدمات الأساسية وعلى صعيد الوظائف والترقي الاجتماعي.

٧- كسر حدة القلق والتناحر الاجتماعي الناشئة عن التباين الحاد في الأجور من خلال التقريب بين الحد الأعلى والحد الأدنى للأجور، ومن خلال العناية بالعناصر الضعيفة في المجتمع.

٨- التخلص من الأمية على نهائي والارتقاء بالتعليم لأن المستوى الرفيع من التعليم يعرب الناس على حقوقهم، ويدلهم على طرق الحفاظ عليها والنضال من أجل استرجاعها.

٣- تيار يواجه تياراً:

إذ أحببنا وصف العالم الذي نعيش فيه اليوم، فربما كان أفضل وصف له أنه عالم سائل مفتوح مزاجي، يفتقر إلى الانشداد نحو القيم الكبرى الجامعية.

هذه الصورة ليست سو دواية، بل هي صورة قاصرة عن عكس الواقع على ما هو عليه من سوء وقبح. الغرب الملحد والمادي والمختلف عنا في نظرته إلى الحياة هو اليوم الذي يحدد الاتجاه العام للثقافة الشعبية عبر العالم الممتد. على مدار التاريخ كان الناس قادرين على العيش وفق مبادئهم ولو في الحد الأدنى، وكانت العزلة تتكفل باستقرار العقائد والتقاليد، كما تتكفل بمساعدة الناس على التكيف مع ظروفهم بعيداً عن المؤثرات الوافدة.

هذا اليوم انتهى على نحو مريع، فالتقدم التقني على صعيد التواصل والاتصال كسر كل السدود، ومحى كل الحدود، وألغى كل المسافات، وقد حدث كل ذلك على يد أمم وشعوب لا ترى في التيار الشهواني وفي الثورة الجنسية ما نراه من مخاطر على الإيمان والصفاء الروحي والصلة بالله تعالى ومدى الالتزام بأحكام الشريعة الغراء وآدابها!

التقدم الحضاري الذي يقوده الغرب فتح وعي الناس؛ ولاسيما الشباب على المتعة واللهو والمزيد من الرفاهية إلى حد الإدمان والشعور نحوهما بالعوز والحاجة الشديدة.

ولعل من أخطر ما نعاني منه اليوم أن كل هاتف ذكي صار مستودعاً لملايين الصور والمقاطع الجنسية، كما أن كثيراً من البرامج التلفاز صارت تتحدث عن الجنس بصورة مكشوفة للغاية وبجرأة نادرة ومما زاد الطين بلة شرعنة العلاقات

المثلية والتأسيس الدستوري والقانوني لها حيث أصبح من المألوف جداً التنظير للزواج على أنه علاقة بين شخصين بقطع النظر عما إذا كانا من جنسين مختلفين أو من جنس واحد، وهذا لم يكن العالم قبل مئة سنة قادراً على مجرد التخيل له!.

ما العمل ؟

كلما فكرت في هذا الموضوع شعرت بالضعف والانكسار، والتيار الشهواني الذي يكتسح كل القلاع والحصون هو نتاج تطور وضعيات عالمية كبرى، وتستفيد منه ألوف الشركات والمؤسسات والجهات، وبالتالي فإن العمل على مقاومته هو فعلاً سباحة ضد التيار؛ والسباحة ضد التيار تعني بذل الكثير من الجهد مع الحصول على القليل من التقدم والإنجاز، ولكن ومهما يكن الأمر، فإن الاستسلام هنا هو أسوأ الخيارات وأسوأ القرارات.

أحياناً نفكر بمقاومة هذا التيار عن طريق بيان مخاطرة وأضراره، على دين المسلم ودنياه، لكن التجربة تؤكد عدم جدوى هذا لأن المسألة أكبر من أن تكون جهداً أو ضعفاً في الوعي هي ضعف في الحصانة الإيمانية والروحية، وهي الضياع للرغبة أكثر من أن تكون سوءاً في الإدارة أو في تقدير الأمور.

ما العمل ؟

في نظري ليس أمامنا من طريق سوى العمل على مقاومة التيار الشهواني من خلال إنشاء تيار روحي يحتل المكانة اللائقة به بين اهتماماتنا، وتسخر له الإمكانات المطلوبة، تيار روحي يقوم على حب الله تعالى ورسوله ﷺ ، كما يقوم

على تدعيم الجانب الإيماني في حياتنا إلى أقصى حد ممكن.

أستطيع أن أزعم أن جوهر التدين هو تلك الصلة المشعَّة بالله تعالى، صلة تقوم على الشوق والإجلال والحياء، كما تقوم على التمجيد والخوف والمهابة، وهذا الجوهر يشبه النبتة العزيزة التي تحتاج حتى تبقى حيةً إلى الكثير من العناية والحماية والسقي المستمر، وإن كثرة التعبد هي الماء الذي ينعش تلك النبتة، ويساعدها على البقاء، ولعل من الإجراءات العملية التي تجسِّد موجات التيار الروحي الآتي:

١- تشكيل تيار ليس كلمة صغيرة، إنه يعني أن هناك مئات ألوف المهتمين الذين يطرقون على سندان واحد، حتى يتمكنوا من جعل التألق الإيماني والروحي واحداً من اهتمامات الناس، والموضوع من السهل الممتنع، سهل لأن القناعة به كبيرة، وممتنع لأن إيصال هذه الرسالة إلى عشرات مئات الملايين من الناس عسير للغاية!.

نحن نحتاج إلى عقد العديد من الندوات وورش العمل والدورات التدريبية على نحو ما حصل في نشر فكرة أسلمة الاقتصاد، وكما حدث في إقناع الكثير من الناس بأهمية التدريب، وإن وسائل التواصل الاجتماعي التي تشكل اليوم جزءاً من المشكلة يمكن أن تكون جزءاً من الحل، مع إيماننا بأن نسيج ضد التيار كما أشرت قبل قليل.

٢- يعمل تيار الشهوة والمتعة واللهو على أساس انكفاء الناس على أنفسهم (لأن الملذات تتخذ غالباً طابع الفردية) على حين أن أفراح الروح وكثير مما يعمل على إنعاش الإيمان يميل إلى أن يكون جماعياً، ونحن نلاحظ أن الصلاة وهي أهم ركن من أركان الإسلام تكون في أفضل صورها مع الجماعة، ومن هنا فإن إخراج الشباب من فلك التيار الشهواني كثيراً ما يكون عن طريق زجهم في

أنشطة وأعمال وبرامج دعوية وأدبية وإغاثية وتعليمية، وعن طريق تلك الأنشطة نخلصهم من الفراغ ومن تأثير الكثير من الأشياء السيئة المتوفرة على وسائل التواصل الاجتماعي.

٣- قراءة سير العظماء الذين غيَّروا العالم، وعلى رأسهم إمامنا ونبينا ﷺ، حيث إن الشهوة تعمل على الغريزة، أما سمو الروح فقائم على الإعجاب بالفضيلة والتفوق والعظمة، ويكفي قراءة سيرة العظماء فضلاً أنها تفتح آفاقنا على غير رجال عصرنا من خيار كل العصور، كما أنها تكسر ذُهان الاستحالة الموجود لدى العقل البشري من خلال رؤية ما تصنعه المثابرة والإرادة الصلبة من اختراق للمألوفات وتحقيق للأحلام الكبيرة، وفي كل ذلك نوع من الإفلات من قبضة تيار اللهو والمتعة الرخيصة.

٤- العبادات القلبية مورد من أهم موارد تكوين التيار الروحي، والمقصود بها تلك الأعمال الباطنة التي تؤثر في سلوك المسلم، وتوجهه الوجهة الصحيحة، وهي كثيرة جداً، من أهمها الإخلاص والتوبة النصوح والصدق والتوكل والصبر والخوف والرجاء والتواضع ومحبة الله تعالى، ومحبة رسول ﷺ، والإحسان بمعية الله تعالى للعبد والحياء منه سبحانه وحب الخير للناس...

يضاف ألى هذا تخلية النفوس من الأمراض الباطنة مثل الحسد والكبر والتعلق بالدنيا والسعي إلى الشهرة والرياء... إن العبادات القلبية أشق من العبادات الجسمية، ولكن لها متعة عظيمة لأنها تسمح للروح بالتغريد في رحاب اليقين والطمأنينة.

وإن من المؤسف أن العبادات القلبية وتطهير النفوس والقلوب من أمراضها

من الأمور التي لا تلقى من كثير من المسلمين اليوم سوى الإهمال مع أن ما ورد في فضل المعاني القلبية والتحذير من العلل النفسية أكثر بكثير وأخطر مما ورد في الأعمال الظاهرة.!

٥- التمسك بالسنة من أهم مصادر إثراء حياتنا الروحية، لأن اقتفاء هدي النبي ﷺ يبرهن على قوة إيمان العبد، وتشتد أهمية ذلك في أيام الفتن وعند غموض الاتجاه وكثرة الخلاف.

إن المسلمين حين يحرصون على فعل السنن والنوافل يكونون قد وضعوا سياجاً يحمي قيامهم بالفرائض، كما أن التمسك بالسنة على مستوى المظهر والسلوك يوجد نوعاً من التشابه بين الناس، وهذا التشابه يقوِّي مناعتهم الثقافية، ويقوي إيمانهم بصحة ما هم عليه من المنهج، أضف إلى هذا أن الانشغال بعمل السنن يعني مكوث المسلم في طاعة جزءاً جيداً من الوقت، ولو نظرنا إلى السنن على مستوى الأدعية والأذكار المقرونة بالأوقات والعبادات وحركة المسلم اليومية لوجدنا أن القلب واللسان يظلان مغمورين بالثناء على الله تعالى ورجائه والاعتصام به، وهذا شيء مهم على صعيد مقاومة تيار الشهواني وعلى صعيد بناء التيار الروحي.

أود أن أؤكد في ختام هذه الفقرة أن مجاهدة النفس على الطاعة ومجاهدتها على ترك المعصية شرط لازم الصقل الجانب الروحي في حياتنا، والأمر كبير عند الله تعالى.

٣- تقبل الاختلاف:

كلما مضى العالم خطوة على طريق التقدم والتحضر وجد نفسه قد تقدم

خطوة نحو المزيد من التنوع والاختلاف، وذلك لأن التخلف يعرض الوقوف عند التشابه والاكتفاء بالضروريات، أما التقدم فإنها يمضي في سبيل المزيد من التفريغ والتنويع والتعدد بسبب زيادة عمليات الإبداع وبسبب زيادة التفنن في أساليب الرفاهية، ومن هنا كان على الناس أن ينموا في عقولهم ونفوسهم المزيد من التقبل لما هو مختلف ومناير لما ألفوه واعتادوه، وأود هنا أن أشير إلى ن التقبل لا يعني الرضا والقبول والموافقة، فهذا غير ممكن وغير ملائم حيث إن لدينا قواعد اعتقادية وفكرية وأخلاقية، نميز بوساطتها بين الغي والرشد والحق والباطل والحُسن والقبح.

أما تقبل الاختلاف، فإنه يقوم على أن في حياة الناس أموراً كثيرة يختلفون فيها بسبب اختلاف أذواقهم وميولهم، وبحسب الزاوية التي ينظرون منها، أو يختلفون فيها لأن الأصل فيها السعة والمرونة والإباحة، ومن الملاحظ في هذا السياق أن المسلمين حين فتحوا العديد من أقاليم العالم لم يتدخلوا في عادات الناس وأزيائهم وأساليب عيشهم ولقائهم، إلا ما خالف منها حكماً شرعياً واضحاً، وهذا من أسرار انجذاب الشعوب إلى الدين الحنيف.

لو تأملنا في جوانب حياتنا المختلفة لوجدنا أنها تقوم على التنوع في إطار الوحدة، وإن الناس حين يجمعهم إطار رحب يصبح ما لديهم داخل ذلك الإطار مصدراً للثراء والغني والنجاح في المنافسة، وقد ثبت من خلال بعض الدراسات أن التنوع في مجال الأعمال على صعيد العمر والجنسية والخلفية الوظيفية، له تأثير على القدرة الابتكارية للفريق.

إن تقبل الاختلاف له العديد من الأسس الأخلاقية، منها (المساواة) فحين

تنظر إليَّ على أنني أقف معك على قدم المساواة في مسألةٍ ما، فهذا يعني أنه ليس من حقي الحكم عليك، ولا من حقك الحكم عليَّ، فلكل معاييره التي يمكنه أن يطبقها على نفسه وليس على غيره.

في بعض الأحيان تقتضي طبيعة الأخلاق الإيجابية أن أتقبل نفسي على ما هي عليه، وأن أتقبل غيري على ما هو عليه بوصف ذلك التقبل رأس جسر للتفاهم والإصلاح والتغيير.

إن سعينا الغريزي إلى التطابق والتشابه هو من بقايا بدائية للبشر حين كان المختلف في ظل غياب الدولة والقانون مصدراً للتهديد والخطر، وحين كان الشبيه من قريب وصديق وجار وشريك مصدراً للأمان والحماية، نعم كان الناس يعيشون بعقلية وروح القبيل والقطيع!.

القرآن الكريم وبلمحة مدهشة يقرر أن تنوع الناس ينبغي أن يدفعهم إلى التعارف وما يتبعه من تعاون على خير حيث قال سبحانه: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا... ﴾[1] هذا التعارف هو مصدر للتعليم ومصدر للوعي بالذات، ولو أن الناس كانوا متشابهين لا نتفى الوعي بالذات والتعلم منه في معظم الأحيان.

ولو أن الناس كانوا متشابهين لانعدم مفهوم القائد والرائد والمصلح والإمام... وعلينا مع كل هذا وذاك أن نقول: إن الاختلاف هو الطريق إلى التوافق الواعي على قاعدة: (نختلف لنأتلف) فالاختلاف هو طريق التكامل على ما نراه في تركيب طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، كما أن علينا

١ سورة الحجرات: ١٣

أن ندرك كذلك أن اختلافنا على الصعيد الاجتماعي هو معقد ابتلاء بالنسبة إلينا ليرى الله تعالى كيف يتعامل عباده مع بعضهم حين يكون فيهم القوي والضعيف والذكي والغبيً والفقير والغنيً والقريب والبعيد، ولو أنهم كانوا متفقين في كل شيء لغاب معنى الابتلاء والاختبار على صعيد علاقاتنا الاجتماعية.

إن من الواضح أن معظم نصوص الكتاب والسنة ظنية الدلالة، إي أنها قابلة للفهم والمتعدد والاجتهاد، وهذا مصدر مهم من مصادر الاختلاف والتنوع، ولو شاء الله تعالى لجعلها محكمة الدلالة وغير قابلة للنظر المتفاوت، ولكنها حكمته البالغة في خلقه.

قواعد في التعامل مع الاختلاف:

١-للنظر إلى الاختلاف على أنها شيء طبيعي، ولننظر إلى التشابه الواسع على أنه نتيجة جهل يعانيه الناس أو قهر يتعرضون له على مذهب فرعون: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾[١]

٢-حين ننكر التنوع فهذا يعني أن نهيئ للأجواء للصراع والاستبداد والظلم، وهذا مناف لتعاليم ديننا للبنيان الحضاري الذي نسعى إلى تأسيسه.

٣-التفهم لأحوال الآخرين وأسباب وجذور أحوالهم وأوضاعهم، يبني جسور المودة والتعاون بيننا وبينهم.

---

١ سورة غافر: ٢٩

٤-الإحسان إلى المختلف ينزع من نفسه تداعيات ومقتضيات الاختلاف.

٥-والحوار والقدرة على الاستماع للمختلف عنا من الأمور الضرورية لبناء الفهم والموقف المشترك.

٦-علينا في تعاملنا مع المختلفين معنا وعنا أن ننظر إلى المعتدلين، وليس إلى الغلاة والمتطرفين فهؤلاء يدمرون كل قواعد الوفاق والاتفاق.

٧-لا ينبغي للاختلاف على مستوى الشكل واللون والنسب والعرق أن يصرفنا عن الوحدة الإنسانية المتوارية والقائمة على وحدة الأصل والطبيعة والحاجات الإنسانية والقائمة على مافي نفوس البشر من خير ونبل واستعداد لمقابلة المعروف بمثله.

٨-الاختلاف الإيجابي هو الاختلاف الذي يعلّم بني البشر كيف يتعلمون من بعضهم، وكيف يتعاذرون، وكيف يعملون بناء الحياة المشتركة.

٩-اتهام النفس وحسن الظن بالآخر مسلك من مسالك حسن التعامل مع الاختلاف.

١٠-لدينا شعار مهم في التعامل مع التنوع، هو: من حقي أن أختلف معك مثل ما أن من حقك أن تختلف معي.

١١-الاختلاف في الفروع والجزئيات مصدر ثراء، أما الاختلاف في الأصول والكليات، فقط يكون سبباً في إشعال حروب كونية، ولهذا فإن من واجبنا جميعاً أن نعزز التوافق في الأصول والقواعد الكبرى.

١٢-الحقائق قابلة للرؤية والتفسير من زوايا مختلفة، وليس تفسيري دائماً هو التفسير الأصح والأفضل.

٤. العربية والحفاظ على الهوية:

الهوية هي مجموعة السمات التي تميز شخصاً أو شعباً عن غيره، والهوية الإسلامية هي السمات التي تميز الأمة الإسلامية عن باقي الأمم، هي الهوية هي تلك الخصوصية التي تؤطر بناء المجتمع.

حياتنا الثقافية وتوجهها وتضمن وحدتها، ومكونات الهوية هي مرتكزاتها من مثل الموقع الجغرافي والذاكرة التاريخية المشتركة، والدين واللغة والثقافة الشعبية المشتركة، وهذه العناصر مع بعضها تؤدي إلى إن تكون لأبناء الهوية الواحدة تطلعات وطموحات مشتركة، كما أن إحساسها بالمخاطر ومصادر التهديد يكون أيضاً مشتركاً.

إذا كانت الثقافة هي الذات المعنوية للأمة، فإن اللغة تشكل جزءاً من أي ثقافة، والعربية تشكل جزءاً مهم من ثقافتنا العربية الإسلامية، واللغة إلى جانب هذا تعبر عن الهوية وعن الذات المعنوية.

من المهم في هذا السياق أن تؤكد أن اللغة ليست عبارة عن أداة لنقل المعاني وتداول الأفكار، إنها في الحقيقة أكبر من ذلك بكثير حيث إنها نفسها مضمون ذو تأثير كبير في تشكيل عقولنا وأسلوب تفكيرنا، كما أنها تصوغ رؤيتنا للعالم من خلال مفرداتها ومن خلال ما تختزنه من رموز وذكريات وخبرات، واللغة مع هذا وذاك هي مرآة لحضارة أهلها، ولهذا فإن من غير الممكن أن يكون لدينا لغة قوية وراقية، ونحن نعيش عالةً على غيرنا في المنتجات الاستهلاكية والثقافية.

-اللغة العربية تحتل بالنسبة إلى المسلمين موقعاً خاصاً، فهي لغة القرآن الكريم ولغة تراثنا الثقافي العظيم، وهي تمثل بالنسبة إلى المسلمين البساط الذي يمكن أن

يقفوا عليه جميعاً في تطلعاتهم إلى الوحدة الإسلامية الكبرى.

خطر داهم:

العربية التي دبجنا في مديحها وبيان فضائلها ألوف الصفحات باتت اليوم في خطر الاندثار، وهذا شيء مفزع ويصعب تصديقه!.

المشكلة لا تتمثل في إندثار العربية بل في تراجع الثقافة العربية الإسلامية وفي الضرر البالغ الذي يحدثه انتشار اللغات الأعجمية في عقول الأجيال الجديدة ونفوسهم، فاللغة الإنجليزية مثلاً والتي صارت لها هيمنة شبه كاملة على كثير من المؤسسات التعليمية هي سليلة ثقافة تتحدث ثقافة آبائه وأجداده وبين الثقافة الجديدة، ويدخل نتيجة ذلك في صراع مرير على مستوى القيمي والأخلاقي، وهو صراع خفي، تظهر آثاره فيما بعد من خلال تكون شخصيته بعيدة عن الانتماء إلى أي شيء!.

يقول أحد الأطباء النفسيين المشهورين[١]: إن التعدد اللغوي في الطفولة قد يسبب اضطرابات نطقية ونفسية وعقلية، وإن الأطفال العرب الذين يتلقون تعليمهم في مدارس أجنبية أو بمناهج أجنبية يميلون إلى الشعور بالنقص والنظرة الدونية للأهل والشعور بالاغتراب في بلدانهم، وهذا الشعور بالاغتراب من أهم أسباب هجرة العقول من بلداننا إلى الغرب!.

الذين يتحدثون بالعامية في المدارس ووسائل الإعلام والمؤتمرات تتلخص

---

١ هود. أحمد عكاشة رئيس الجمعية المصرية للطب المصري.

في أن المتحدثين بالعامية يشعرون بدرجة من الحميمية ودرجة من فهم ما وراء الكلمات من معان فرعية وإيماءات أكبر بكثير مما يشعرون به حين يتحدثون بالفصحى، وهذا قد يكون بسبب غربة الفصحى في ديارها وتراجع استخدامها بإفراطها وإسهاب عن الأشياء والمنافع وكثير من الشأن الدنيوي من خلال مئات المفردات، مما يؤدي إلى انحسار كثير من المعاني المتصلة بالإيمان والتقوى والورع والتعبد والتقرب إلى الله تعالى والشرف والعفة وصلة الرحم...

العربية مهددة بالاندثار من خلال تراجع استخدامها في الإعلام لصالح العاميات ومن خلال تراجع استخدامها في المدارس والجامعات لصالح اللغات الأجنبية، وعلى رأسها الإنجليزية، وقد ظهر جلياً صدق ما ظهره ابن خلدون من ولع المغلوب بتقليد ثقافة الغالب، حيث صارت المدارس التي تدرس باللغة الإنجليزية مهوى أفئدة أبناء الطبقة الوسطى والعليا، وقد رأيت بعض من يدرسون فيها وهم يتلعثمون في قراءة سطر بالعربية أو النطق بجملتين صحيحتين، أما الكتابة بالأحرف العربية فشيء يصعب وصفه!.

بعض الآباء في بلادنا يشرحون ما يريدونه من أبنائهم بالإنجليزية لأنهم لا يستطيعون إفهامهم والتفاهم معهم بالعربية، وهذا في بلاد الغرب، أما مشكلة العرب الذين يعيشون في غير البلاد العربية فمشكلتهم أكبر بكثير.

إن الطفل يتشرب من خلال تعلم لغة غير لغته يتشرب ثقافة أهل تلك اللغات، وتتشتت ذاته بين على نحو متدرج في المجالات المختلفة، كما أن العامية مرتبطة بالأفكار السطحية والتفكير البسيط إلى حد بعيد فقر مفرداتها وكونها لغة ضرورة للتعامل مع أحداث ومتطلبات الحياة اليومية، وهذا ملاحظ بقوة في

الشعر الشغبي وفي البرامج التلفاز التي يتحدث فيها المتحدثون بالعامية.

أما حجة الذين يدرسون صغارهم باللغات الأجنبية في الرياض الأطفال والمدارس الابتدائية، فهي أنهم بذلك يتمكنون من لغة حية هي اليوم من لغات العلم والحضارة، وهذا يساعدهم على إكمالهم مراحلهم الدراسية في الخارج، كما يمكنهم من الاطلاع على البحوث والدراسات والمواد المعرفية المكتوبة بتلك اللغات. وهذا صحيح إلى حدٍ ما لكن الخسائر الثقافية والفكرية والاجتماعية المترتبة على ذلك هائلة، ويقف على رأسها الانقطاع شبه التام عن التراث الحضاري العربي الإسلامي بسبب فقد القدرة على قراءته وفهمه والتفاعل معه، وقد رأينا أن دولاً متقدمة اليوم تدرس أبناءها بلغاتها، كما هو الشأن في اليابان وكوريا الجنوبية وغيرها..

ما العمل ؟

علينا في البداية أن نقول: إننا لسنا ضد تعلم اللغات الأخرى، ولكننا ضد التعليم بها وضد تعليمها لأبنائنا في رياض الأطفال وفي المرحلة الابتدائية، وهذا يجب أن يكون واضحاً.

لو تأملنا في الجهود التي بذلت خلال الخمس عشرة سنة الماضية لحماية العربية، فإننا لن نشك في أن ترغيب الناس في التحدث بالفصحى وتعلم كتابتها بإتقان، لم يأت إلا بالقليل من النتائج، وهذا يعود إلى التيار الثقافي الهائل الذي أطلقته العولمة، وهو تيار يقوم على الخضوع للأقوى والزهد في كل ما هو محلي، ومنه اللغات المحلية بالطبع، كما أن الوعي اللغوي لدى معظم العرب هو دون المستوى

المطلوب، وهذا يعني أنه لا بد من عمل حازم وشاغل على المستوى القانوني والتنظيمي، وإلا فإن ما نخشاه من أفول نجم الفصحى سيكون أمراً لا مناص منه!.

وأود هنا أن أشير إلى التالي:

١-صدور قانون ملزم بعدم تدريس الإنجليزية في رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية في أي مدارس حكومية أو أهلية، ومنع أبناء البلد من الدراسة فيما يسمى المدارس العالمية، وحجب المسعدة الحكومية عن أي مدرسة تفعل ذلك.

٢-إصدار قانون ملزم بأن تكون الفصحى هي لغة التدريس في المدارس والجامعات، إلى جانب كونها لغة الندوات والمؤتمرات.

٣-المكاتبات والمراسلات والعقود والوثائق الحكومية، تكون جميعاً بالفصحى.

٤-برامج الإذاعة والتلفاز تكون بالفصى، وتوضع عقوبات صارمة على من يخالف ذلك.

٥-بذل جهود كبيرة على صعيد تسهيل تعلم العربية وتعليمها وإنتاج كتب بمستويات مختلفة تساعد على ذلك.

٦-إتاحة الفرصة للتدريب على استخدام العربية بطريقة صحيحة للمدرسين في كل المراحل التعليمية.

٧-إيجاد حراك اجتماعي مؤسسي على صعيد الاهتمام بالفصحى وإيجاد المناسبات لذلك.

إن دولاً قد بذلت جهوداً كبيرة على صعيد حماية لغاتها وهوياتها الوطنية،

ونستطيع الاستفادة من تلك الجهود.

نحن نحتاج في الحقيقة إلى شيء واحد في حماية العربية هو: الاهتمام.

قيم النجاح:

أمة الإسلام تعاني من تخلف يضرب أطنابه في عدد من المجالات، وهي في حاجة إلى أن يكون لديها عدد كبير من الناجحين كي تستدرك على بعض ما فاتها.

البداية في نظري تكون في التمكين للأفكار والرؤى والقيم والأدبيات التي تساعد على النجاح حيث يدل مالا يحصى من الدراسات والمعطيات التاريخية أن النجاح مرتبط على نحو جوهري بالطموح والإرادة الصلبة والتعليم الجيد والتفكير الإيجابي، وحين تتوفر هذه الصفات لدى شخص أو شعب، فإن المال يأتي بعد بدايات شاقة طبعاً.

للنجاح الأخروي ركيزتان: الإخلاص والصواب، ودور الإخلاص أكبر لأن العمل حين يكون لغير الله تعالى لا ينتفع به صاحبه، وقد ينتفع به الناس، أما النجاح الدنيوي فإن افتقاره إلى الصواب والمهارة أكبر، ولهذا فإننا نرى عدداً من الأعمال الناجحة لغير المسلمين، ونرى أعمالاً فاشلة أدارها أناس لا نشك في إخلاصهم وصدقهم، لكن كانوا معوزين في المهارة والرؤية والإدارة والأدوات، أي في مكونات الصواب.

إن أكبر جهات تؤثر في التنشئة الاجتماعية للأجيال، هي الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام،وأعتقد أن دور الأسرة هو الأكثر أهمية، لأنها هي توجد

الاتجاهات لدى الصغار، وترعاها وتوجهها، ويأتي دور المدرسة ثم وسائل الإعلام مكملاً للأسرة.

قيم النجاح كثيرة، وسأشير هنا على نحو سريع إلى أهمها:

أ- الإيمان العميق بأن الله تعالى لا يضيع اجتهاد المجتهدين وبذل الباذلين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإن التشبع بالقيم التي سأشير إليها يعد من باب حسن التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب، ولكل مجتهد من اجتهاده حظ ونصيب.

ب- التفوق على الذات منهج حياة وحركة يومية، وهو يعني أن ينافس الإنسان نفسه عوضاً عن منافسة الآخرين. التفوق على الذات يعني نوعاً من الالتزام بالتحسن المستمر على مستوى التعبد والعلاقة بالناس، وعلى مستوى الاستفادة من الوقت وإنجاز المهمات. لاشك أن هذا من أشق الأمور في الحياة، ولكن غرس هذه الفكرة ضرورية جداً لأنها لا تساعد على التقدم فحسب، وإنما تعمل وكأنها صمام أمان من الانتكاس.

ج- النجاح الباهر يحتاج إلى الرغبة والقدرة، لأن من يصوّب على الإنجازات الكبرى يواجه الكثير من العقبات، ولهذا فإن من المهم جداً أن يبلغ ولع المرء بعمله حد العشق حتى يتمكن من بذل الجهد الاستثنائي مدة طويلة، وهذا يعني أنه لا يجوز للأبوين إكراه ابنهما أو بنتهما على دراسة تخصص معين أو العمل في مهنة محدودة، كما أنه يعني أن يكون لدينا بيئة عامة، لا تكره كتلة كبيرة من الشباب على العمل فيما لا يحبون ولا يحسنون.

من وجه آخر يتوجب على الواحد منا أن يكتشف، أو يعثر من يساعده على من يكتشف قدرته ونقاط القوة لديه لأنه مجرد الرغبة في عمل شيء لا تكون ناجعة ما

لم يصحبها قدرة وإمكانية شخصية.

د- من المهم لمن يسعى إلى النجاح الكبير أن يتعود قبول الفشل واصطدام بالأبواب المغلقة، فهذا شيء طبيعي، وإلا لصار كل الناس عظماء وناجحين كباراً. بعضهم يعرٍف النجاح بأنه القدرة على أن تنتقل من فشل إلى فشل دون أن تفقد الحماسة. نعم إن الذي يضاد النجاح ليس هو الفشل، ولكنه اليأس والتوقف عن المحاولة الأخطاء دروس نتعلم منها، وسينتهي الخطأ حين نستوعب الدرس، واستيعابنا يكون بتغير سلوكياتنا.

هـ- التفكير االإيجابي، وهو يعني يعنيه رؤية الفرص والتفاؤل والتركيز على الحلول إلى رؤية الوجه المشرق للأشياء، ومما يذكر في هذا السياق أن مندوباً لإحدى شركات الأحذية زار قرية صغيرة يمشي الناس حفاة فيها، فأرسل إلى شركته بأن لا أمل في بيع شيء من الأحذية في هذه القرية، لأن الناس لم يتعود الانتقال، وبعد مدة ذهب مندوب لشركة أحذية أخرى، فأرسل إلى شركته متعة المشي في حذاء، ويمكن أن نجعلهم يجربون!.

التخلف أوجد قدراً هائلاً من السوداوية والتشاؤم والإحباط، ولهذا فهناك حاجة ماسّة إلى نشر أدبيات التفكير الإيجابي على أوسع نطاق.

و- وضوح الهدف لدى الواحد منا ذو قيمة كبرى في فاعليته والاستفادة من وقته، يمكن للأسرة أن تساعد أطفالها على أن يكون لهم أهداف واضحة يسعون إلى تحقيها منذ سن الثانية عشرة. الهدف الجيد يجب أن يكون مكتوباً، كما ينبغي أن يكون محدداً جداً، حتى يمكن قياسه. قد تبين أن العمر يضيع سدى ما لم نضغط عليه بأهداف مستقبلية. لدينا اليوم عدد كبير من الدورات التدريبية التي تساعد

الشباب على تحديد أهدافهم ورسم خطط شخصية لتحقيقها، ومن المهم تشجيع الشباب على دخولها.

وضوح الهدف يخلصنا من سلبية كبيرة، هي إدمان الحديث عما لا نريد والذي يعبرٍ على نحو مبطّن عن نفسية احتجاجية يائسة.

ز- المثابرة والاستمرار في الكدح فضيلة من أعظم الفضائل التي يحتاج إليها الناجحون. والحقيقة أن المثابرة تترجم عدداً من القيم العظيمة مثل وضوح الهدف والصبر والقدرة على التحمل، وهي قيمة يحتاج إلى التسلح بها جميع الراغبين في التفوق الاستثنائي، والناس الأقل موهبة هم الأكثر احتياجاً إلى التعود على المثابرة والمداومة على بذل الجهد.

للمثابرة شرط شبه وحيد هو مجاهدة الناس وحملها على المكاره، والله تعالى يقول: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[1]

أسرنا ومدارسنا في حاجة أن ترسل رسالة واضحة وقوية إلى الجيل الجديد بأن طريق المعالي لا يكون معبداً أحد مهما كانت مواهبه وإمكاناته، وأن للعيش بكرامة ثمناً لا بد من دفعه بطيب نفس، وقد دلت تجارب كثيرة على أن إلزام النفس بأعمال وإنجازات يومية يشكل شيئاً مهماً في تجلي المثابرة، وذلك مثل قراءة جزء من القرآن الكريم يومياً وقراءة كتاب متوسط في الأسبوع وتفريغ نصف ساعة في اليوم للتفكير في قضية من قضايا الشام العام...

ح- الصدق والأمانة والنزاهة صفات مهمة للساعين إلى التفوق والإنجاز العالي، وذلك لأن كثيراً من الأعمال لا تكفي فيه الكفاءة العالية، وإنما لا بد معها

١....

من المصداقية والأمانة حتى يصبح المرء موضع ثقة، وقد أشارت ابنة شعيب إلى المهارة والأمانة معاً حين قالت: ﴿ يا أبت استأجره إن خير استأجرت القوي الأمين ﴾[1] كثير من أصحاب الثروات يقولون باختصار: لقد نجحنا بسبب وثوق الناس بنا، فقد استثمروا معنا أموالهم ونحن في أمس الحاجة إليها، وعلى نحو عام فإن الخلق الحسن هو باب من أبواب الرزق، ومع أن أتمتة كثير من الأعمال خففت من إمكانات الغش والخداع والاستغلال إلا أن الصدق يظل محتفظاً بقيمة العليا في كثير من المجالات.

ط- العمل في دائرة التأثير يساعد كثيراً على الحصول على نتائج طيبة، وإن من الواضح أن ما يثير اهتمامنا كثير ومتنوع، لكن الذي نستطيع إحداث تغيير فيه، أو نملك المهارة للفوز به دائماً محدود بسبب محدودية إمكاناتنا ووسائلنا على المستوى الاجتماعي مثلا تأثير المرء في أسرته أكبر من تأثيره في جيرانه، وتأثير المعلم في طلابه أكبر من تأثيره في أبناء بلده، وعلى مستوى المهارة نجد أن أصحاب الخيال الواسع يفلحون في التفكير والتخطيط الاستراتيجي على حين أن أصحاب الذاكرة القوية يفلحون في دراسة الطب والتاريخ والشريعة... كما أن أصحاب الشخصية الآسرة ينجحون في الإدارة والأنشطة النقابية والحزبية والسياسية.

التمييز بين دائرة التأثير ودائرة الاهتمام مهم للغاية لحفظ جهودنا من التبديد ومهم لتوظيف مواهبنا في المجال الصحيح.

ي- إعداد الذات للعمل ضمن فريق شيء مهم جداً في العصر الحديث،حيث إن كثيراً من الأعمال قد بلغ درجة من التعقيد تجعل الجهود الفردية قليلة الجدوى.

١

العمل ضمن فريق يحتاج أولاً أن يحاول المرء تكوين فريق ممتاز فيه المبدعون المخلصون المثابرة والمنسجمون مع بعضهم، فإن وجد المرء نفسه فيمن يلتحق بفريق وليس بين من يكوِّنون فِريق العمل، فإن عليه آنذاك أن عليه آنذاك أن يتخلق بالأخلاق التي تساعد على نجاح الفريق مثل الصبر والحلم واللطف ومراعاة مشاعر الآخرين وحفظ أسرار العمل إلى جانب فهم عضو الفريق لدورة ومسؤولياته وفهم الخلفيات الثقافية لزملائه.

هذه أهم قيم النجاح، وهناك بالطبع قيم أخرى مثل الحرص على الجودة والإتقان والتفكير خارج الصندوق والمخاطرة المحسوبة وإدارة الوقت على نحو جيد... لكن حرصي على عدم تضخيم الكتاب حملني على الإعراض عن الحديث عنها.

٥ - ذكر للعالمين:

كنت أتساءل: ما الشيء الذي يمكن أن نهديه لأنفسنا وللعالم في آن واحد فلم أجد شيئاً أهم من (الدعوة) إلى الله تعالى والتبشير بالدين الحنيف.

أنا هنا لن أتكلم عن ممارسة الدعوة داخل المجتمعات الإسلامية، لأنها تشكل مهمة شرعية أخلاقية حضارية واجبة الأداء بحسب الأشخاص وعلى قدر الوسع والطاقة، وإنما سأتحدث عن هديتنا للعالم أو رسالتنا إليه.

العالم يبدع، ويتطور، ويمتلك أدوات أكثر، لكنه يفقد الإحساس بالهدف النهائي، والذي يكمن تحديده في الجواب على سؤال: لماذا نحن هنا ؟.

العالم يفقد الثوابت وهو يجري خلف الشهوة والمصلحة وإرضاء المزاج، وليس أدل على هذا من التشريع للمثلية، والذي يعني ببساطة فتح الطريق أمام انهيار

الأسرة وفناء البشرية.

العالم يفقد البوصلة لأنه بدأ يفقد الإحساس بأجزائه، فهناك اليوم شعوب تباد، ودور عبادة تدمر، وطائرات تقصف الحمم على رؤوس الأبرياء دون أن يرق جفن لما يسمى العالم المتحضر!.

العالم اليوم إذن في حاجة إلى العقيدة بأنه جزء صغير من خلقٍ أكبر، وأن خالقه زوده عبر رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالوصفة العلاجية لمشكلات وبالدليل لهنائه وسعادته ونجاته.

نحن المسلمين ورثة الأنبياء والمؤتمنون على تبليغ القيم والمعاني التي جاؤوا بها للعالمين.

نحن حين نضع البرامج ونمارس الأنشطة الدعوية نفتح في الحقيقة باباً في اتجاه الارتقاء بأنفسنا لأننا بذلك نشبه العظيم الذي ترك شرب الدخان حتى يتمكن من تحصين أولاده من شربه، ويتمكن من التحدث مع من يشربه منهم، ونحن حينئذ مثل الأب العظيم الذي عوّد نفسه الصدقة كل يوم حتى يعِود أسرته عليها.

حتى نستطيع أداء واجبنا الدعوي تجاه العالم، وحتى يكون لجهودنا ثمرة، فإننا نحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى معرفة شيئين على نحو جيد:

الأول: هو حاجات العالم، وهي كثيرة، لكن ما يعنينا هنا، وما يمكننا الانفراد بتقديمه ليس كثيراً، وربما أمكننا تلخيصه في كلمات قليلة:

-العالم يحتاج إلى اليقين بعد أن وصل إلى مرحلة الشك في كل شيء.

-العالم يحتاج إلى هدف يستحق التضحية بالحياة نفسها من أجله، ولن يكون

ذلك سوى الفوز برضوان الله تعالى ودخول الجنة.

-العالم يحتاج إلى ثوابت توجه مسيرته في المجال الاجتماعي وفي مجال الأعمال وعلى صعيد العلاقات الدولية

-العالم في حاجة إلى الشعور بالطمأنينة والأمان والدفء والعاطفي هل نستطيع توفير هذه الأشياء له، أو الإسهام على نحو فعال في ذلك ؟

الجواب هو نعم، ولكن بشرط أن يعد كل واحد منا نفسه مسؤولاً عن إيصال صوت نبيه ﷺ للعالمين، كما طلب ذلك حين قال: ﴿ بلغوا عني ولو آية ﴾[1] وحين قال: ﴿ نضَّر الله عبداً سمع مقالتي، فوعاها، فبلَّغها من لم يسمعها، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه لا فقه له ﴾[2]

الثاني: فهم الذائقة الثقافية لمن ندعوهم إلى الإسلام، والمقصود بالذائقة الثقافية هنا: الحاسَّة العقلية والنفسية والذوقية التي يتلقى الناس بها ما نقوله لهم، إنها طريقة فهمهم وتفسيرهم لما نقوله، وإنها التداعيات النفسية والمنطقية التي يتركها كلامنا لديهم.

إذا قلنا: إن على كل مسلم أن يمارس الدعوة بحسب استطاعته ومعرفته، فهذا يعني أن على الصفوة من الدعاة والمثقفين المسلمين القيام بأمرين مهمين:

١-نشر قضية الاهتمام بدعوة غير المسلمين إلى الإسلام على نطاق واسع بين الجماهير الإسلامية، وبيان أهميتها وشيء من طرقها وأساليبها والأخطاء التي يقع فيها بعض الناس.

---

١ رواه البخاري

٢ روي هذا الحديث بروايات عدة تبلغ به مرتبة التواتر.

٢-تقديم النموذج العملي للداعية المؤثر، وأعتقد أن النموذج المطلوب يتسم بعدد من السمات الجوهرية، لعل منها:

١-اللطف والاقتراب من الناس برفق شديد وبأجمل الطرق، لأن حاسَّة الجيل الجديد تجاه تطفل الآخرين منتفخة إلى حد التورم المرضي، كما أن مساحات الحرية الشخصية تتسع باستمرار ولاسيما فيما يسمى العالم الحر، ولهذا فإن كثيرين باتوا ينظرون إلى إرشادهم للخير على أنه نوع من التدخل في حياتهم الشخصية.

٢-الإحسان إلى الآخرين يشكِل باباً كبيراً لإثارة اهتمامهم، بل للدخول إلى عقولهم وقلوبهم. لا أقصد بالإحسان هنا أن ندفع لمن نريد دعوتهم المال (وإن كان ذلك وارداً في بعض الأحيان) وإنما أقصد الوقوف في موقف الإنسان النبيل المؤثِر الذي يفكر في غيره، ويرى همومه ومصالحه، وهذا قد يتمثل في ابتسامة أو سؤال عن الحال أو المساعدة في متاع أو في تنظيف الشارع أمام بيت الجار أو في شرح مسألة معقدة لزميل في الجامعة...الإحسان دائماً يترجم ما لدى صاحبه من رفاهية روحية وأناقة في الذوق والإحساس.

٣-الاستقامة والصدق والمصداقية، فالأمم حين تسلك سبيل الانهيار لا تسلكه بسبب قلة المال أو ضعف النظم، وإنما بسبب فقد النموذج الأخلاقي الذي يرشدهم إلى ما هو أقوم وأفضل، ولهذا فإن نجاحنا الدعوي على المستوى المحلي والعالمي يتوقف إلى حد بعيد على تحلينا بالصفات والفصائل التي نتمنى أن نراها في العالم، وندعو العالم إليها، ويأتي على رأسها النزاهة والاستقامة المالية والنجاح في أعمالنا، وكف الأذى عن الآخرين والخروج من فلك التفكير المطلق في المصالح الشخصية. العالم يجب أن يرى والصورة الحية تؤثر في عقول الناس

وفي نفوسهم أضعاف الكلمة المسموعة، ولهذا فنحن حين نصبح نماذج إرشادية هادية نكون قد سمحنا للعالم بأن يرى طريق خلاصه، وإمكانية نجاته.

٤-الإبداع في الأساليب والوسائل الدعوية، وهذا العنصر في غاية الأهمية، فهذا الدفق الهائل من الصور والرموز والمشاهد والأخبار والمخترعات... جعل الوعي البشري لا يتوقف إلا عند ما هو بديع وجديد ومتفوق ومؤثر.

المشاهد التمثيلية ومقاطع الفيديو والكلمات الصوتية القصيرة والحوارات والأسئلة الذكية تؤثر اليوم أضعاف تأثير خطبة أو محاضرة، وينبغي لكل ما ذكرناه أن يكون قصيراً أو مضغوطاً قدر الإمكان على قاعدة: كل ما كان أصغر وأقصر فهو أجمل!.

الشيء الأخير الذي أريد أن أختم به هذه القيمة العظيمة هو:

دعوة أثرياء المسلمين إلى إنفاق المال بسخاء على الأنشطة والمنتجات الدعوية، فهذا المجال من أشرف ما تُنفق فيه الأموال، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾[١] الأنشطة الدعوية باتت اليوم مكلفة للغاية لأن كثيراً منها يتركز تدريجياً في المنتجات الإعلامية، وإن لدينا عشرات الألوف من الأثرياء الذين يستطيع كل واحد منهم أن ينشئ قناة فضائية أو موقعاً الكترونية، وأن يمول فريقاً إعلامياً، وأن يفرغ عدداً كبيراً من المتخصصين في الدعوة من أجل التبشير بالدين الحنيف وجذب الآخرين إلى طريق الإسلام.

١ سورة فصلت: ٣٣

الأمة والمجتمع

خلق الله تعالى بني البشر اجتماعيين بطبعهم وتكوينهم، فالجنس البشري لم يستمر لولا لقاء رجل وامرأة وعملهما على تكوين أسرة، وخلق الله بني البشر متلبسين بحالة من العوز والاحتياج لبعضهم، فحاجات الفرد أكثر وأكثر بكثير من أن يلبيها أي واحد منا، بل أي جماعة، ولهذا فإن العيش في مجتمع والعلاقات الوثيقة مع الآخرين، تبدو اليوم من الضروريات، والقاعدة في هذا أن الإنسان كلما مضى في طريق التحضر أكثر زادت حاجاته، مما يعني زيادة عدد الأشخاص والجماعات والجهات التي بات يعتمد عليها في تلبية حاجاته، فالتحضر لا يؤدي إلى استغناء الناس عن بعضهم كما قد يتوهم، وإنما يزيد في الافتقار إلى التعاون والتبادل.

إن من الواضح أن معظم مسراتنا تنبع من علاقاتنا الاجتماعية، كما أن معظم الأخطار التي نحيط بنا، مصدره بغي الإنسان واعتداؤه على أخيه الإنسان.

إن المسلمين في القرن الحادي والعشرين مطالبون بالتفكير والعمل على جعل

مجتمعاتهم أكثر أمناً واستقراراً وأكثر جاذبية للعيش فيها، وهذا يحتاج إلى الكثير من العمل الدؤوب المصحوب برؤية راشدة لحاجات الناس في هذا الزمان.

نحن من وجه آخر مطالبون بالتفكير في تعزيز انتماء الإنسان المسلم إلى أمته الكبرى، وهذا في الحقيقة مطلب شرعي قبل أن يكون مصدر منعة وقوة وشعور بالاعتزاز، وهذا كله مطلوب في زمان بروز الدولة القطرية على حساب التكوين الأممي وفي الوقت الذي تتعرض فيه المجتمعات للمزيد من التفكك والضعف.

مجتمع أقوى:

المجتمع اليوم عبارة عن مجموعة كبيرة من الناس يعيشون على رقعة جغرافية تخضع لسلطة سياسية واحدة. المجتمع مجموعة شبه مغلقة، فالعادات والتقاليد والقيم والقوانين السادة تدفع به نحو الانغلاق، لكن انغلاقه لا يكون كاملاً بسبب التفاوت الواضح بين أفراده في إدراك الواقع وفي فهم التحديات والفرص إلى جانب التفاوت في في الخضوع للعادات والتقاليد والقوانين السائدة، ولا ننسى في هذا السياق التفاوت في الإمكانات والمواهب الشخصية والتفاوت في ظروف النشأة.. إن كل هذا يجعل تماسك المجتمع منقوصاً، في الوقت الذي تتاح فيه الفرصة للتطوير والتجديد الاجتماعي.

سمات المجتمع القوي:

١-مجتمع التضحية:

حياتنا الاجتماعية هي مناط نوع مهم من ابتلاء الله تعالى لعباده، فاختلاف

طبائع الناس وظروفهم وحاجاتهم يوجد الكثير من النزاع بينهم، وحب الناس للبقاء والرفاهية وخوفهم من عاديات الأيام يدفعان بهم دفعاً في اتجاه الشح والأثرة والعدوان، ومن هنا فإن نجاحنا في حياتنا الاجتماعية يقوم على مفهوم كبير ينطوي تحته الكثير من المعاني، وهذا المفهوم هو (التضحية)وهي تعني الصبر على الأذى والتنازل والإيثار والعطاء المجاني والمساعدة ومراعاة المشاعر، إنها الشيء المخالف لأهواء النفوس والمصالح الضعيفة. التضحية مطلوب من كل واحد من أبناء المجتمع، لكن المجتمع القوي هو الذي تتوفر فيه شريحة واسعة تهتم بالشأن العام فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعمل على ترسيخ القيم النبيلة إلى جانب نصرة المظلوم ومساعدة الضعيف والارتقاء بالذوق العام. وإذا قلنا إن كل المجتمعات تعاني من شيء من الغوغائية وشيء من الفجاجة والترهل، فإن مقياس رقيٍّ المجتمع يظل كامناً في حجم الشريحة التي تبذل من وقتها وجهدها وفكرها وما لها قيما يعود على الجميع بالخير والنفع، وحين تتضاءل هذه الشريحة على نحو ظاهر، فإنك لا تكون في الحقيقة أمام مجتمع، وإنما أمام (حشد أجساد)أو أكوام من الناس المتنازعين أو المنكفئين على أنفسهم، وفي هذا الإطار نفهم عشرات النصوص الشرعية التي تحث على البذل والعطاء وتقديم الخدمة الاجتماعية وحماية البيئة...

٢-مجتمع مأسس:

نحن نعيش في عصر المأسسة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وذلك لأن وجود المؤسسات والروابط والنقابات والأندية والهيئات التطوعية واللاربحية

ضرورية جداً للتقدم الاجتماعي، حيث إن حاجات الناس في حالة من التوسع الدائم، كما أن الرفاهية الاجتماعية الناجزة والنامية توفر الكثير من الوقت وتفتح شهية كثير من الناس على تقديم العون وتحقيق التطلعات القيمة والطموحات الوطنية، وإن إيجاد المزيد من المؤسسات الاجتماعية هو الذي يدفع بكل ذلك نحو الأمام، كما أنه يؤطره على نحو يسّهل الانخراط فيه لعموم الناس.

المجتمع القوي هو المجتمع الذي يحقق أكبر قدر ممكن من الاستغناء عن تدخل الدولة، على أن النظرية الإسلامية في الحكم على أن الدولة تتولى من الأعمال والمهمات والمشروعات ما يعجز عنه الناس، ولهذا التوجه فلسفة عميقة لسنا في حاجة إلى شرحها هنا.

العالم يكتشف كل يوم مدى أهمية الثراء الاجتماعي بالمؤسسات والمنظمات الاجتماعية، وليس أدل على هذا من التنامي الكبير في أعدادها والارتقاء الواضح في مستوى تنظيمها وتنوع اختصاصاتها، وعلى سبيل المثال فقد زاد عدد المنظمات غير الحكومية الدولية من (٦٠٠٠)عام ١٩٩٠ إلى ما يزيد على (٥٠،٠٠٠) عام ٢٠٠٦.

أما المؤسسات الخيرية والتطوعية المحلية، فإن العالم ينظر إليها اليوم على أنها عبارة عن مقار لتغيير المجتمع وهندسته من جديد، وهذا يتم من خلال شيئين اثنين:

الأول هو ما يشعر به المتطوع والمحسن والمتبرع من رفاهية روحية وطمأنينة وشعور بالقيام بما هو أكثر من الواجب.

الثاني: المساعدة على تغيير حياة الآخرين نحو الأفضل من خلال تنميتهم

وحل مشكلاتهم المعنوية والمادية وتوفير الظروف والمعطيات العامة التي تجعل الجميع يشعرون بوجود سند ومرجعية في تحقيق التقدم والتغلب على صعوبات الحياة. ولست هنا بصدد الآيات والأحاديث التي تدل على عظم ثواب من ينفق في سبيل الله تعالى يقضي حاجات الناس فهي كثيرة ومعروفة)[1] لكنني أود أن أقول: إن الفلسفة العميقة لعمل الخير وبذل المعروف في الإسلام ترتكز على اعتباره استدراكاً على قصور النظم السياسية والاقتصادية وتلافياً لأخطاء الأفراد والحكومات، كما أنه يشكل كرَّة ثانية على طريق تحقيق العدالة الاجتماعية، ولهذا فإن انتشار المؤسسات الخيرية والتطوعية يظل مرتبطاً بصحوة الأمة ووعيها بواجباتها الشرعية، وهذا واضح للعيان.الغرب متفوق في العمل الخيري لأنه سنَّ القوانين التي تحفز على العمل الخيري،مثل إلزام الشركات بدفع ٥٪ من أرباحها لصالح العمل الخيري، ومثل خصم نسبة من تبرعات الأفراد من الضرائب المترتبة عليهم، ومثل استعداد الشركات لإعطاء موظفيها إجازات مدفوعة الأجر عند رغبتهم في التطوع لإنجاز عمل من الأعمال، على حين افتقاد معظم البلاد الإسلامية إلى هذه القوانين، بل إن محبي عمل الخير قد يجدون العراقيل عوضاً عن التحفيز والتشجيع لاربحية، وتجمع سنوياً لأعمال البر ما يزيد على ثلاثمئة بليون دولار، ويقدم المتطوعون فيها في العام الواحد ما يزيد على عشرين بليون ساعة عمل، مما يجعل القطاع الاربحي هو القطاع الثالث بجدارة بعد القطاعين العام والخاص، أما في عالمنا الإسلامي فأرقام المؤسسات الاربحية العاملة فخدمة المجتمع فهي متواضعة للغاية على مستوى النوع والكم، مما يجعل من المطالعة في أحوالها وأعدادها موضوعاً مخزناً للقراءة!.

---

١ للمؤلف كتاب بعنوان ثقافة العمل الخيري يمكن الرجوع إليه.

٣ - رأس المال الاجتماعي:

في تقرير التنمية البشرية لعام (٢٠٠٣) ثم تعريف رأس المال الاجتماعي بأنه النظام المؤسسي والعلاقات والعادات والتقاليد التي تؤثر في كافة جوانب المجتمع بما ينعكس على التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية، ويؤثر بالتالي في عملية التنمية واستمرارها.

ولا بد في الحقيقة أن نضيف إلى هذا ما يملكه المجتمع من قيم نبيلة ورؤية متقدمة للفضيلة بالإضافة إلى المكتسبات المعرفية.

رأس المال الاجتماعي هو رصيد مما أشرنا إليه والذي تعمل الأجيال المتعاقبة على صونه ومراكمته تعميم الانتفاع به على أوسع نطاق ممكن.

نستطيع أن نلخص مصادر رأس المال الاجتماعي في مصدرين أساسيين:

١-ما يقوم الأفراد ببنائه من مؤسسات وعلاقات وشبكات اجتماعية مثل جمعيات النفع العام والنقابات والأحزاب والمؤسسات الخيرية التي تخدم فئات معينة مثل ذوي الاحتياجات الخاصة...

٢-المنظومة القيمة التي توفر الأرضية الفكرية والأخلاقية للعيش المشترك والشعور بالطمأنينة مثل الثقة والشفافية وتحمل الآخر ومحاولة تفهم ظروفه والرغبة في معاونته إلى جانب الاتجاه العقلاني في النظر إلى الأمور والتواصل والإيثار والتواضع والنقد الذاتي وحب المعرفة والتفاؤل.

إن رأس المال الاجتماعي ليس مجموعة من الأفكار والمفاهيم، وإنما مجموعة من الصفات الراسخة في النفس والسلوك ومجموعة من المبادرات والعلاقات

البناءة والمفيدة، وإن تكوين المجتمع لرأسماله مما أشرنا إليه يحتاج إلى وقت طويل لأنه عبارة عن تغيير ثقافي عميق، والتغيير الثقافي هو دائماً استراتيجي بعيد المدى، وإن تربية الأمهات العظيمات في البيوت هي المسؤول عن تغيير الشخصية لأن التربية هي التي تحوِّل المعرفة إلى ثقافة وسلوك وعلاقات ملموسة.

لا أريد أن أتجاوز هذا العنوان قبل أن أقول: لا يمكن تحقيق معظم ما تحدثنا عنه من قوة المجتمع من غير وجود تعليم ممتاز وأطر تقنية متقدمة، ومن غير توفير قدر كبير من المعلومات والمعارف التي يرى الناس الأشياء من خلالها، وإذا صحَّ القول بأن المعرفة قوة فلا مطمع في وجوه مجتمع قوي من غير معارف ومعلومات حديثة تكون في متناول الجميع، وهناك من الدراسات ما يشير إلى أن ٧٠٪ـ ٨٠٪ من النمو الاقتصادي في العالم قائم على المعارف الحديثة والمتقدمة .

٢. توسيع الطبقة الوسطى:

المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالطبقات غريبة عن الإطار العقلي والفكري على معظم العرب والمسلمين، فهي أوربية النشأة، لكن بعد انفتاحنا على النظام الرأسمالي والثقافة الغربية عموماً صار الحديث عما يسمى بالطبقة الوسطى مهماً لأنها تعني الشيء الكبير.

إن هناك نزاعاً حول تحديد ملامح الطبقة الوسطى، ولهذا فقد يكون من المفيد أن نقول: إن هناك ثلاث محددات أساسية لها، الوضع الاقتصادي والوضع التعليمي ونوعية العمل الذي يكسب منه المرء رزقه.

أبناء الطبقة الوسطى يحصلون على كل الضروريات والكثير من الكماليات،

وبينهم وبين خط الفقر في البلد مساحة جيدة، وهم قد نالوا خطاً من التعليم (الثانوية فما فوقها) يمكنهم من العمل في مجال على صلة بالمعرفة في كثير من الأحيان، كما أن الواحد منهم يعثر في الغالب على وظيفة أو عمل يوافق توقعاته ويلائم تخصصه.

المعلمون والمهندسون والأطباء ورجاء القضاء والتجار والموظفون في وظائف متوسطة وعليا هؤلاء جميعاً وعلى نحو عام هم من رجال الطبقة الوسطى، وقد جرت العادة بتقسيم الطبقة إلى ثلاث شرائح: دنيا ووسطى وعليا، ومن الطبيعي في هذا أن الشريحة لدينا قريبة جداً من الطبقة الدنيا وأن الشريحة العليا من الطبقة الوسطى قريبة من الطبقة العليا، وإذا قسمنا المجتمع إلى خمس فئات، فإن الطبقة الوسطى تكون في الثانية والثالثة والرابعة.[1]

في الرؤية الإسلامية حث على العبور من الطبقة الدنيا إلى الوسطى ثم العليا، وهذا هو فحوى تشجيع الإسلام على طلب العلم وكسب المال وعدم الإسراف والترفع عن سفاسف الأمور ودنايا الأعمال، لكن للإسلام ميزانه الأخلاقي الدقيق في هذا، وهذا الميزان يقوم على قوله ﷺ: ﴿نعم المال الصالح للرجل الصالح﴾[2] فالعبور من طبقة جيد بشرط أن يكون عن طرق مشروعة على مستوى المال وعلى مستوى الوظيفة، والحالة المثالية في هذا أن يكون انتساب المرء إلى طبقة أعلى قد تم عن طريق استثمار وتنمية معارفه ومهاراته وخبراته وإبداعاته، أي أن يكون الاتقاء علمياً واقتصادية ووظيفياً في آن واحد.

---

١ انظر دراسة بعنوان الطبقة الوسطى في البلدان العربية: قياسها ودورها في التغيير وهي من أعداد الأمم المتحدة.

٢ رواه أحمد.

أهمية الطبقة الوسطى:

تعود أهمية الطبقة الوسطى إلى طبيعة تكوين منسوبيها، فهم متعلمون جادون عمليون، وقد نالوا المكانة التي هم فيها عن طريق المعرفة والعمل والالتزام والرقي المتدرج والطبقة الوسطى قبل هذا وذاك هي مركز الإبداع والتجديد وكونها وسطى يعني أنها تشكل العمود الفقري للمجتمع، ووضعيتها تبعثها على أن تعيش حياة معتدلة حيث لا تضغط الفقر والفاقة وحيث لا تتحول الثروة والمكانة إلى شاغل عن أداء الواجبات الدينية والاجتماعية، من هنا فإن كل أدبيات التنمية تمتدح اتساع الطبقة الوسطى، وتثني عليه بوصفه الوضعية الصحيحة التي على جميع المجتمعات الاتجاه نحوها.

كيف نوسع الطبقة الوسطى؟

١-علينا قبل الحديث عن توسع الطبقة الوسطى أن نتحدث عن حمايتها من التآكل، والحقيقة أن أدوات حمايتها هي نفس أدوات إنشائها ومساعدتها على النمو، لكنني أشير هنا إلى أهم ما يفتك بها وهو الفساد المالي والإداري، لأن الطبقة الوسطى تعتمد في رقيها الاجتماعي في الأساس على ما لديها من جدارة ومعرفة وخبرة، وفي البلدان الفاسدة يكون الارتقاء على أساس النفوذ والعلاقات والمنافع المتبادلة. هذه الوضعية تعني ارتقاء كثيرين للطبقة العليا من غير إضافة حقيقية لرأس المال الوطني أو الناتج القومي، وهناك من الدراسات ما يشير إلى أن مقابل كل شخص يصعد إلى الطبقة العليا من غير وجه حق يهبط إلى الطبقة

الدنيا أربعة أشخاص.!

إن الحكم الرشيد القائم على الكفاءة والنزاهة ومكافحة الفساد والشفافية يساعد مساعدة كبيرة على حماية الطبقة الوسطى وتوسيع نطاقها

٢-تحسين التعليم وإدخال تحسينات جذرية عليه في كل مراحله أداة مهمة في توسيع الطبقة الوسطى، وذلك لأن المعرفة والمهارة هي رأس مال معظم أبناء الطبقة الوسطى. قد حدث في كثير من الدول العربية خلال السنوات العشر الأخيرة شيء مؤسف حيث تراجع مستوى التعليم في كل مراحله (هذا حكم على الغالب طبعاً) في الوقت الذي صارت فيه متطلبات سوق العمل من الكفاءة والمعرفة أعلى، وهذا واضح جداً. فهناك بحث قوي ومتواصل هم الشباب الذين يشغلون الوظائف المهمة، ولكن نتائج البحث مخيبة للآمال، كما أن انحدار مستوى التعليم قد أدى إلى بطالة واسعة في صفوف خريجي الجامعات، كما أدى إلى أن كثيرين منهم يعملون في غير تخصصاتهم.

الارتقاء في التعليم يحتاج إلى حلول مركبة وفعالة، وأعتقد أن في التعليم الأهلي والتعليم الخيري والوقفي بعض الأمل لحل المشكلة بشرط أن يلقى الأول دعماً قوياً من الحكومات، وأن يلقى الثاني دعماً قوياً من رجال الأعمال والشركات التجارية.

٣-توسيع الطبقة الوسطى يتطلب نوعاً من إعادة هيكلة الاقتصاد ليصبح قائماً على المعرفة والتصنيع والإبداع وتطبيق الحد الأدنى للحماية الاجتماعية من خلال توفير الخدمات بأسعار غير مرهقة، فهذا يساعد أبناء الطبقة الوسطى على عدم الانحدار إلى الطبقة الدنيا، ويساعد الطبقة الدنيا على الاتقاء إلى الطبقة الوسطى

ولدول جنوب شرق آسيا تجارب ناجحة جداً في هذا يمكن الاستفادة منها.

إن كل هذا يتطلب المزيد من المال، والمال يأتي من تحسين أسلوب جباية الضرائب ومن النزاهة والاستقامة في صرف أموال الدولة والقطاع العام، أضف إلى هذا أن الشفافية في الحكم وتفعيل آليات المساءلة إلى جانب الاستقرار السياسي، إن كل هذا يدفع بالناس إلى المزيد من بذل الجهد والمزيد في ابتكار المشروعات.

٤-في مقدور الدولة الإسهام في توسيع الطبقة الوسطى عن طريق السياسات والعقود التفضيلية، وتطبيقاتها كثيرة جداً، إذ إن في استطاعتها أن تخصص قدراً جيداً من عقودها للشركات الصغيرة والمتوسطة، وتلك التي توفر فرص عمل أكثر، كما أن في إمكانها الدفع في اتجاه الاستثمار في قطاع المعلوماتية والتقنيات المتقدمة مما يعني إتاحة المزيد من فرص العمل لخريجي الجامعات، وتستطيع الدولة مساعدة المدارس والجامعات الأهلية على تخفيض رسومها التعليمية من خلال منحها الأراضي والقروض الحسنة..

إن ما هو ممكن لحماية الطبقة الوسطى وتوسيعها كبير لكنه يتطلب التعلم من تجارب الأمم والكثير من الاهتمام.

٣- الأسرة واللبنة الأهم:

خلق الله تعالى الرجل منطوياً على قدر من النقص، وخلق المرأة كذلك، وجعل خلاصهما من كثير منه باجتماعهما برباط الزواج وتحت سقف واحد، ولهذا فإن آدم حين كان في العالم البهيج (الجنة)كانت معه زوجته حواء، وحين هبط إلى الأرض كانت أيضاً بصحبته، وحين يعود إلى الجنة ستكون أيضاً معه، هذا هو حال الرجل

والمرأة، وإننا حين نرغب في تسليط الضوء على أهمية وجود الأسرة في الحياة، فإن وظيفتها في الحياة هي التي ستقودنا إلى معرفة ذلك، وتلك الوظيفة تتركز في شيئين جوهرين، هما:

التكامل والسكينة والسببية في بقاء النوع البشري...

الثاني هو تنشئة الأبناء وإدخالهم في حظيرة الإنسانية.

إن الله تعالى قد جعل استمرار النوع البشري مشروطاً بلقاء الرجل مع المرأة وجعل إحساسهما بضرورة حدوث ذلك اللقاء واستمراره إلى آخر الحياة، وجعل من عقد النكاح وما يصاحبه من إقرار بالمهمات والمسؤوليات المظلة التي تجعل من الزوجين اللبنة الأهم في تشييد الصرح الاجتماعي، ولهذا فإن عزوف كثير من الشباب والشابات في الغرب عن الزواج، وشرعته المثلية يشكلان نوعاً من العدوان على الجنس البشري لأنهما بمثابة الرصاصة القاتلة لاستمراره.

أما الوظيفة الثانية للأسرة فهي من أجل الارتقاء بالنشئ الجديد بل من أجل تكوينه، فالثابت أن الإنسان يولد ناقص الإنسانية، فهو لا يملك المشاعر ولا اللغة ولا المعايير التي يفرِق بها بين الآمن والخطِر وبين الملَح وغير الملَح وبين الصواب والخطأ... ومن أسرته ثم من مجتمعه يكتسب كل ذلك، وإن من الثابت كذلك أن الخطوط العميقة في شخصية الطفل ترسم خلال السنوات الخمس الأولى من عمره مما يعني الدور المحوري للأسرة في حياة البشرية.

إن الأسرة في العالم الإسلامي تشكل في الحقيقة نقطة التوازن مع معظم الأمم الأخرى، فما لدينا من تماسك أسري ما زال هو الأفضل في العالم بحمد الله على حين أن كثيراً من شعوب العالم تتقدم علينا في التنظيم والإبداع والكفاية الإنتاجية والتعليم والصحة.

مخاطر وتحديات:

تستطيع القول ببساطة: إن وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة قد وضعت العالم فيما يشبه الخلاطة الكبيرة، الكل يرى الجميع، والجميع يراقبون الكل!.

كان الناس في الماضي يعيشون ويربون وينتجون في بيئات مغلقة ووفق نماذج محدودة ومحددة مما يجعل التفلت القيمي والأخلاقي محدوداً ومما يجعل التطور على كل الصعد بطيئاً، لكن قد انتهى اليوم وربما إلى غير رجعة، ومن هنا فإن من المتوقع أن تواجه الأسرة المسلمة كل المخاطر والتحديات التي واجهتها الأسرة في الغرب والشرق، وقد استطاعت العولمة توحيد المزاج العالمي إلى حد بعيد، وهو مزاج يقوم على الانفتاح على المتعة والشهوة واللهو والخصوصية ومراعاة المصالح الشخصية إلى جانب الانغماس الكبير في المادي والدنيوي، وزحزحة الإقبال على الآخرة وكثير من الرمزيات الدينية والقيمة عن بؤرة الشعور ومحاور الاهتمام، وهذا كله يجعل احتفاظ الأسرة المسلمة باتجاهها وقيمها وأسلوب عيشها وتربيتها أمراً في غاية الصعوبة.

إن أكبر التحديات هو التغير الذي يحدث الآن في نظرة الزوج إلى علاقة بأسرته وإلى دوره فيها ومسؤولياته تجاهها، وقل مثل هذا بالنسبة إلى الزوجة وأيضاً الأولاد ونحن نلاحظ أن نبرة (الخصوصية) قد ارتفعت كثيراً عما كانت عليه في الثلاثين سنة الماضية حيث صار كل واحد من الزوجين يميل إلى أن يصنع أفراحه وسعادته على انفراد أو بصحبة الأصدقاء والزملاء، وهذا بالطبع لا يكون إلا على حساب الأسرة، كما أن من الملاحظ زيارة حالات الطلاق والإدمان والانخراط في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي إلى حد الهوس والذهول عن كل الأشياء

الأخرى، وهذا أيضاً على حساب التواصل بين أفراد الأسرة.

قد شاع في الغرب ما يسمى بالمساكنة والمعايشة حيث يعيش رجل وامرأة في بيت واحد من غير عقد قرآن، وشاع كذلك الزواج المؤقت والزواج التجريبي، وأخيراً بدأت حملات محمومة لشرعنة الشذوذ الجنسي حيث يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وهذا يعني على البداهة البداية في إبادة الجنس البشري حيث إن عدم نقص السكان أن تنجب كل امرأة ما متوسطة (٢/ ٢) من الأطفال، وقد قامت المحكمة العليا في أمريكا قبل شهور بإعادة تفسير الدستور ليصبح الزواج عبارة عن عقد يربط بين شخصين بقطع النظر عن اختلافهما أو تطابقهما في الجنس، وهذا يشكل وصمة عار في جبين الإنسانية، وتدل كل السنن الربانية في الخلق وكل خبراتنا التاريخية على أن الناس اعتادوا على تقليد بعضهم في الخير والشر، على نحو ما نجده في قوله ﷺ : (لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال: فمن؟ [1] نفهم من كل ما سبق أن التحديات تحيط بالأسرة المسلمة من كل جانب وأن كل أشكال التفكك وكل الانحرافات الأخلاقية التي تعرضت لها الأسرة في الغرب تزحف في اتجاهنا، وهذا يستدعي منا الاستنفار والمقاومة الاستراتيجية، والكثير الكثير من العمل المنهجي المنسق لعلنا نستطيع حماية الأسرة المسلمة ولو على نحو جزئي.

ما العمل ؟.

١-علينا أن نتفق على أن شكل الأسرة والروح التضامنية التي كانت تسودها

---

١ متفق عليه

قد انتهينا إلى غير رجعة،ولهذا فإن استعادة ذلك ستكون عبارة عن جهاد في غير عدو.

٢-نحن في حفاظنا على الأسرة المسلمة وفق التعاليم والأدبيات الشرعية نسبح ضد التيار، ونقاوم أمواج العولمة العاتية، ولهذا فإن النتائج التي ستحصل عليها لن تكون في كثير من الأحيان مرضية، ولهذا فإن علينا الحفاظ على الجوهر، ونغض الطرف عن كثير مما هو شكلي أو كمالي.

٣-نحن في حاجة إلى وقفة نقدية لتفحص التراجعات التي حدثت في حياتنا الأسرية، وأعتقد أنه يقف على رأسها ضعف التواصل وضعف التضامن، ويحدث ضعف التواصل وضعف التضامن، ويحدث ضعف التواصل بين أفراد الأسرة بسبب كثرة مشاغل الآباء والأبناء وازدياد ضغوط العمل وبسبب انفتاح كل واحد منهم على العالم الافتراضي على حساب التواصل مع أهله الذين يعيش معهم تحت سقف واحد، أما ضعف التضامن فسببه الحياة الحضرية على الطريقة الغربية حيث ينفتح وعي الجيل الجديد على المصلحة الشخصية الضيقة على حساب رعاية الوالدين وخدمة الأشقاء ومساعدة الأشقاء والشقيقات، وهذا يحتاج إلى جلسة أسبوعية مستمرة على إحدى الوجبات مع إبعاد الحواسيب والجوالات عن تلك الجلسة، أما ضعف التضامن، فيمكن تلاقي شيء منه من خلال لقاء شهري للأسرة الممتدة ومن خلال صندوق جماعي لمساعدة العنصر الضعيف في الأسرة والإنفاق على المناسبات الاجتماعية ومعالجة الحالات الطارئة.

إن القاعدة في علاج مشكلاتنا تقوم على تكلف وتنظيم ما يعوضنا عما نفقده من أشياء بدهية وطبيعية، ومع أن الكُحل في العينين ليس كالكحَل إلا

أن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

٤-قد تضررت الأسرة المسلمة كثيراً بسبب خروج المرأة من بيتها للعمل حيث إن ذلك كان في كثير من الأحيان على حساب أسرتها وعنايتها بصغارها، هذا غير التفسخ الأخلاقي والأسري الذي سببه اختلاط النساء بالرجال الأجانب في كثير من البلدان الإسلامية، واليوم يقدِم التطور التقني حلولاً رائعة لذلك عن طريق الإمكانات المتزايدة للعمل من المنزل حيث إن المرأة حين تعمل في وظيفة من بيتها تظل قريبة من أطفالها، وتستغني عن المربية g-(الشغالة)في أحيان كثيرة، وتسلم من مشكلات الاختلاط، ويكون في إمكانها أن تعمل أربع أو خمس ساعات عوضاً عن سبع أو تسع ساعات، كما أنها ترتاح من مشكلات ازدحام الطرق وصعوبة التنقل في الذهاب إلى الوظيفة والعودة منها، والعالم اليوم يهتم بهذا اهتماماً كبيراً إلى درجة أن نحواً من ١٠٪ من القوى العاملة في الولايات المتحدة يؤدون أعمالهم عن بُعد، وأقترح في هذا السياق أن يكون لدينا جمعيات، تدرب النساء على العمل من المنزل وعلى تنظيم البيئة التقنية المطلوبة لذلك بالإضافة إلى تقرير مادة دراسية على طلاب الجامعات من أجل تثقيفهم بآليات ومتطلبات العمل عن بعد.

٥-مساعدة الشباب على الزواج وإيجاد تقاليد ثقافية جديدة تقوم على التخفيف من أعباء حفلات الأعراس إلى جانب بذل جهود كبيرة في خفض المهور... كل هذا يساعد على بناء الأسر، وإن إلزام الشاب والشابة المقبلين على تكوين أسرة بحضور دورة عن الحياة الزوجية يقلل من نسبة الطلاق إلى حد بعيد، وإن لماليزيا تجربة رائدة وناجحة جداً على هذا الصعيد.

٦-نحن نحتاج في كل بلد إلى وزارة خاصة بالأسرة والطفولة، كما أننا في حاجة

إلى عشرات المؤسسات والجمعيات التي تساعد الأسرة المسلمة على العيش وفق هدي الإسلام، كما أنها تقوم بنشر ثقافة الأسرة الناجحة والسعيدة والمتماسكة، وإن على كبار رجال الأعمال تحمل مسؤولياتهم الأخلاقية والاجتماعية في مساعدة هذه المؤسسات على القيام بدورها.

لا أريد أن أفصل أكثر في هذا الموضوع، لكنني أود أن أذكر بسنة من سنن الله تعالى في الخلق، هي أن الأقرب إليك هو في الغالب الأكثر تأثيراً فيك، وعلى هذا فإن سعادة الواحد منا متوقفة على سعادة الأكثر قرباً منه وصلاحهم، فليبذل من فكره وجهده ووقته وماله ما يجعل أسرته أكثر سعادة وصلاحاً ونجاحاً.

٤ - أمة واحدة:

على مدار التاريخ كان الحسّن الإسلامي الشعبي مشدوداً إلى الأمة، وليس الدولة، وربما كان ذلك بسبب الشعور باستمرار وجود الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، على حين أن الدولة أو الحكومة عرضة للتحول والانقراض. ومن هنا فإن لدى المسلمين أشواقاً عارمة إلى رؤية الدول الإسلامية التي تزيد على الخمسين دولة وقد انصهرت في دولة واحدة عملاقة ومؤثرة. ومع تقديري واحترامي لهذا التطلع إلا أن الواقع على الأرض لا يأذن بهذا ولا بعشرة حيث إننا في زمان انتهاء الأمبرطورية ورسوخ الدولة القطرية، والذي يريد وصل عدد من الدول ببعضها كمن يسكن في برج، ويريد توسيع شقته، إنه سيصطدم بمن فوقه ومن تحته ومن يجاوره من كل الجهات، ولنا في الاتحاد الأوربي عبرة وعظة فقد استمرت المحادثات بين الدول الأوربية من أجل إقامة الاتحاد أكثر من خمسين

سنة، وذلك ليس من أجل الحصول على دولة واحدة، وإنما من أجل قدر عالٍ من التنسيق بين عدد من الدول، وما تم إنجازه حتى الآن مهدد بالانهيار الكامل إذا ما تعرض لعواصف اقتصادية عاتية. هذا كله يعني شيئاً واحداً هو أن الوحدة السياسية بين الدول الإسلامية هي الحلم المؤجل، أو آخر ما ينبغي التفكير فيه، وإذا وصلنا إلى هذه القناعة وجب علينا أن نعمل على ما يجعلنا أمة واحدة، أو كالأمة الواحدة، وهذه ميسور، وتتحمل الجزء الأكبر من أعبائه ومسؤولياته المثقفون المسلمون والمنظمات والهيئات الشعبية المختلفة:

١-حلف فضول ثقافي: حين تتحدث عن الثقافة، فإنك تتحدث عن شيء كبير ومعقد واستراتيجي، ولهذا فإن أي مقترحات في تغيير الثقافة يحتاج تنفيذها إلى وقت وحتى يؤتي التنفيذ ثماره يحتاج منا إلى صبر، وأعتقد أن العالم الإسلامي لم يعان قروناً من التخلف، إلا بسبب تخلفه في رؤية العالم وإلا بسبب عدم تمسكه بالقيم الإسلامية الرفيعة والتربية عليها، ومن هنا فإن توحيد العالم الإسلامي يجب أن يرتكز إلى توحيد القيم التي يجب أن تصبح جزءاً من سلوك المسلمين جميعاً، وتلك القيم عديدة، لكن أهمها فيما أعتقد نصرة المظلوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحب الخير للناس، والوقوف بحزم ضد التعذيب واحترام القوانين السارية والالتزام بمكافحة الفساد والحفاظ على البيئة.

رسوخ هذه القيم في العالم الإسلامي يشكل البنية الثقافية العميقة التي تجعل من العالم الإسلامي موحداً ثقافياً، وهذه الوحدة هي التي تمهد لأشكال أخرى من التنسيق والتقارب.

٢-يذهب في كل عام مئات الآلاف من الشباب المسلم للدراسة في بلدان

العالم المتقدم، وكثير من النابغين منهم لا يعودون إلى العالم الإسلامي، وبعضهم يضيعون هناك، لأن الشاب حين يغادر بلاده تضعف مناعته الثقافية، ويصبح معرضاً للاستلاب الثقافي.

الاقتراح هو أن يكون لدينا منظمة مهمتها إنشاء الجامعات الربحية على مستوى العالم الإسلامي، على أساس أن يكون في كل دولة إسلامية كبيرة جامعة متخصصة وعلى مستوى عالٍ من الأداء الأكاديمي، فتكون هناك جامعة للطب والعلوم الطبية وجامعة للهندسة وجامعة للعلوم الإنسانية وجامعة لعلوم الشرعية وجامعة لصناعة البترول وجامعة للعلوم الإدارية وجامعة لتاريخ العلوم وجامعة لعلوم الفضاء وجامعة للتقنيات المتقدمة وهكذا...

وكلما كانت الجامعة أكثر ملاءمة لظروف البلد الذي ستقام فيه كان ذلك أفضل الرقي والأداء الأكاديمي هو الشرط الأول حتى تستطيع تلك الجامعات اجتذاب النخب من أبناء المسلمين، وعن طريق تلك الجامعات سيتم توطين المعرفة في العالم الإسلامي وإحداث قدر كبير من التمازج والتعارف بين شبابه صناع المستقبل إلى جانب حفظ طاقاتنا العلمية والإبداعية من التسرب من بلداننا.

هل هذا صعب ؟

الجواب لا. فنحن نملك المال والكفاءة الإدارية ويمكن أن نأتي لتلك الجامعات بأفضل القامات العلمية، ولكن ينقصنا الاهتمام، وتنقصنا الإرادة والعزيمة، وعسى يأتي ذلك مع الأيام وتنامي الوعي.

٣-الوسطية ونبذ الغلو:

دائماً كانت الوسطية، وتظل أبداً هي الأرضية التي يمكن أن يقف عليها السواد الأعظم.

إن تعاليم الإسلامي على مستوى العقائد وعلى مستوى الأحكام والآداب متلفعة بالوسطية، وهذا من أسرار خلود هذا الدين وأسرار نفوذه في العصر الحديث اجتاحت اجتماعاتنا موجات من الغلو والتطرف القائم على الجهل بالإسلام ومنهجيته في الإصلاح والقائم على الجهل بالواقع المحلي والعالمي، والحقيقة أن الغلو يقوم اليوم بتشويه وجه الإسلام الحضاري والإساءة إلى سمعة المسلمين على مستوى الدولي، كما أنه ينشر الفوضى والدمار في بلاد المسلمين، على ما نشاهده اليوم في عدد من البلاد العربية، ولهذا فإننا نحتاج إلى تحالف إسلامي واسع للوقوف في وجه التطرف بكل أشكاله: التطرف الإسلامي والعلماني والقومي والعرقي، وهذا يتطلب تعميق مفاهيم الفكر الوسطي من نحو الموازنة بين الصالح والفاسد والتضلع من فقه الاستضعاف وفقه التدرج وفقه الضرورة ومن نحو تفهم ظروف الآخرين ومراعاة مشاعرهم إلى جانب استيعاب أدبيات المعايشة من نحو الاحترام المتبادل والرحمة والإحسان وغض الطرف عن الزلات وحسن الظن... وتحتاج من أجل هذا إلى جهاز فكري ناضج وإلى جهاز إعلامي ضارب يقدم ما لديه بأشهر اللغات العالمية والإسلامية.

٤- السوق الإسلامية المشتركة:

حين يكون منافسو المسلمين وخصومهم أصحاب كتل اقتصادية كبيرة أو متحدين فيما بينهم، فإن مواجهتهم بكتل اقتصادية صغيرة ومتفرقة سيعني التبعية

والهزيمة من غير ريب، وهذا هو العنوان الواضح لعلاقاتنا الاقتصادية مع أمم الأرض!.

يقولون: إن الاقتصاد هو ما تبقى من السياسة اليوم، أي أن الاقتصاد يظل قادراً على إيجاد الإطار السياسي الاستراتيجي، أو أن تنمية الاقتصاد تظل هي الهدف الأكبر للتنسيق السياسي بين الدول، ومن هنا يمكن القول: إنه لا يسد الفراغ الذي يتركه التشتت السياسي بالنسبة إلى المسلمين سوى تحسين مستوى تكتلهم الاقتصادي، ولهذا كثرت المطالبات بإنشاء سوق إسلامية مشتركة، لكن دون جدوى، ودون نتائج عملية تذكر، ولا أدل على هذا من أن حجم التجارة البينية بين الدول الإسلامية لا تزيد في أحسن الأحوال على ١٤٪ أي أن الاقتصادات الإسلامية مرتبطة على نحو جوهري باقتصادات الدول غير الإسلامية وتابعة لها.

إن المعوقات التي حالت دون قيام سوق إسلامية مشتركة كثيرة ربما كان من أهمها الاختلاف في توزيع وتكاليف التعاون ومدخلات التكافل الاقتصادي بين تلك الدول، إذ إن معظم الدول الإسلامية ليست دولاً صناعية، وهذا سيضطرها إلى الارتباط بالدول الصناعية، وهذا واضح لا يحتاج إلى شرح.

السوق الإسلامية المشتركة هي عبارة عن أمكنة واتفاقات ومعاهدات ونظم تتم فيها وبها المعاملات المالية والأنشطة الاقتصادية والتجارية المختلفة بين المسلمين من غير عوائق أو قيود أو حواجز وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية.

إن وحدة العقيدة والوجهة والمصير لأمة الإسلام تتطلب منها بذل الجهد المشترك من أجل تقوية اقتصاداتها وإحداث أكبر قدر ممكن من التكامل بينها، وإفادة أكبر عدد من المسلمين وتوفير فرص العمل للأجيال الجديدة، والحقيقة

أن الحديث عن السوق الإسلامية المشتركة يظل حاضراً في كل المناسبات، لكن التقدم فيه شبه معدوم مع توفر كل مقومات إنشائه من قوة العمل الكبيرة حيث أن معظم الشعوب الإسلامية تتمتع بنسبة عالية من الشباب إلى وجود وفرة كبيرة من الأموال التي يمكن توظيفها في السوق الإسلامية إلى اتساع الأرض الإسلامية وتنوع مناخها بالإضافة إلى اتساع السوق الاستهلاكية حيث يزيد عدد المسلمين اليوم على المليار ونصف من البشر.

إن إقامة السوق المشتركة تحتاج إلى صبر ووقت وتحتاج قبل ذلك إلى العزيمة والقدرة على شيء من التضحية العاجلة وهي في الحقيقة عبارة عن مرحلة أو محطة على طريق التكامل الاقتصادي، والذي من محطاته:

أ- إقامة منطقة تجارة حرة، أي إلغاء الرسوم الجمركية على السلع والخدمات التي تنتقل بين الدول المشاركة.

ب- الاتحاد الجمركي، ويكون بالاتفاق على حرية تبادل السلع بين دول الاتحاد مع تطبيق الدول الأعضاء تعريفة جمركية موحدة في معاملاتها مع الدول الأخرى.

ج- السوق المشتركة وتكون بالإضافة إلى ما ذكر في الاتحاد الجمركي في الاتفاق على حرية انتقال الموارد أو عناصر الإنتاج وهي العمل ورأس المال بين الدول المشاركة.

د- الاتحاد الاقتصادي حيث يتم تنسيق السياسات النقدية والمالية والاقتصادية وما يرتبط بها من إجراءات ونظم...

هـ- الوحدة الاقتصادية وهي المحطة الأخيرة على طريق التكامل الاقتصادي،

وهذه تكون بإنشاء المؤسسات التكاملية مثل البنك المركزي الموحد ووجود سلطة عليا للوحدة وجهاز إداري لتنفيذ السياسات الاقتصادية التكاملية[1]

إن إقامة المشروعات العملاقة المشتركة بين الدول الإسلامية بالإضافة إلى تشجيع السياحة وتقرير مواد دراسية إضافية لتعريف المسلمين ببعضهم، إن كل ذلك يساعد على تعزيز التكامل الاقتصادي بين الدول الإسلامية، ويساعد على بقاء ثروات العالم الإسلامي على قيد التداول بين شعوبه ومؤسساته، ويظل في إمكان المؤسسات والشركات التجارية والصناعية الشعبية أداء دور مهم في كل هذا.

٥- روابط واتحادات إسلامية:

نستطيع تدعيم فضيلة الوحدة الإسلامية عن طريق إيجاد فتح المزيد من الطرق لتلاقي الفكر والخبرة والجهد الإسلامي عن طريق إيجاد عدد كبير من الروابط والاتحادات الإسلامية مثل:

-اتحاد الأطباء المسلمين.

-اتحاد المهندسين المسلمين.

-اتحاد المعلمين المسلمين.

-اتحاد التجار المسلمين.

-اتحاد المزارعين المسلمين.

-رابطة المرأة المسلمة.

-اتحاد الصناعيين المسلمين.

---

١ انظر بحثاً بعنوان: الوحدة الاقتصادية بين الأمة الإسلامية للدكتور محمد عبد الكريم عمر، منشور على النت.

-نادي الشباب الإسلامي المبدع.

-اتحاد الدعاة المسلمين.

-........

أنا أعرف أن بعض ما أقترحه موجود فعلاً، وقد بُذلت من أجله جهود كثيرة ومقدرة، لكن معظمه خامل أو قاصر، ويحتاج إلى دعم حكومي وشعبي حقيقي مما يلقي علينا جميعاً المسؤولية في النهوض به.

إن في إمكاننا أن نتحدث عن تنسيق المواقف السياسية للدول الإسلامية على الصعيد الدولي، وأن نتحدث عن تنشيط ترجمة الكتب الممتازة إلى اللغات الإسلامية، لكنني أردت أن ألفت انتباه القراء الكرام إلى موضوع مهم غاب عن دائرة الاهتمام في السنوات العشر الأخيرة بسبب هيمنة الفكر القُطري الضيق واتساع مساحات الأنانية على كل الأصعدة.

أبعاد نهضوية

نستطيع القول: إن الهجس بالتحول إلى الأفضل هو جزء من طبيعة البشر، وقد أخبرنا الباري عز وجل عن إدراك إبليس لهذا الهاجس لدى آدم عليه السلام، ومن ثم أغراه بما هو أفضل، أو بما يضمن استمرار الأفضل حين قال له: ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[1] وقد استجاب آدم وزوجه لذلك الإغراء، وأكلا من الشجرة على الرغم من نهي الله تعالى لهما عن الأكل منها، ولم تنطفئ أشواق الإنسان المسلم إلى النهضة والتقدم في أي مرحلة من مراحل التاريخ، لكن المشكلة كانت دائماً في رؤية طريق النهضة والقدرة على دفع تكاليف السير فيه، ويمكن القول: إنه من بدايات القرن التاسع عشر أخذ ما كان يسمى باليقظة العربية بالتبلور على مستوى الأفكار والمفاهيم، كما أنه أخذ ينتشر في البلدان الإسلامية بلداً بعد بلد انطلاقاً من مصر ومقر السلطنة العثمانية (تركيا) إلى باقي البلاد الإسلامية ومازالت الأشواق متقدة إلى يوم الناس هذا...

---

١ سورة طه ١٢٠

إن الحديث عن النهضة هو حديث عن الارتقاء الإسلامي وهو أيضاً حديث عن نوع من الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، كما أنه صراع داخل التيار الإسلامي نفسه حيث إن هناك المجددين والأكثر انفتاحاً كما أن هناك المقلدين والمحافظين والخائفين من عواقب الانفلات الحضاري إذا ما صارت خطانا أوسع وأسرع من اللازم.

طابع النهضة لدينا طابع روحي أخلاقي أولاً وعقلي وفكري ثانياً، وعمراني تنموي ثالثاً، وإن النهوض اليوم سيعني الخلاص من تخلف واقعنا عن المستوى الذي يرسمه لنا ديننا ومبادئنا، كما سيعني الخلاص من التخلف عن عصرنا وما حققته الأمم من تقدم على الصعد المختلفة.

إن الأبعاد النهضوية التي يمكن الحديث عنها كثيرة في الحقيقة، وأود هنا أن أركز على ما أظن أنه أشد أهمية منها:

١-الحلم الوطني:

كل قطر من الأقطار الإسلامية في حاجة ماسَّة إلى إطلاق (حلم وطني) يسعى إلى تحقيقه خلال عقدين أو ثلاثة عقود، ومن مجموع أحلام البلدان العربية والإسلامية يتشكل الحلم العربي والحلم الإسلامي. الحلم الوطني هو أيقونة التغيير والنهوض، وهو الطريق إلى المستقبل وعنوانه،ومن خلال تحقيق الحلم نتعلم وننضج، ونكبر، ونؤهل أنفسنا لبلوغ حلم أكبر.

الحلم الوطني هو المشروع الجامع لكل المواطنين، وهو المشروع الذي يحوِّل البلاد كلها إلى ورشة للعمل المخلص والجاد والمتكاتف.

المشروع الوطني هو عبارة عن عدد هائل من المبادرات العملية التي ترتقي بأبناء البلد على المستوى الفكري والروحي والأخلاقي والمادي، والحضاري عامة عبر تقديم نماذج متفوقة وملهمة.

متطلبات بناء حلم:

متطلبات بناء حلم وطني كثيرة، منها ما هو فكري، ومنها ما هو ثقافي وسياسي وأخلاقي، ولعلي أذكر هنا ما أعتقد أنه الأهم منها:

أ- حين نقول حلم وطني، فهذا يعني أنه حلم لكل المواطنين، لأنه يلبي أشواقهم وتطلعاتهم، ويساعدهم على تلبية حاجاتهم، وهذا يعني أنه يستند إلى الهُوية الوطنية العليا والعابرة للتنوع العرقي والقبلي والديني والمذهبي والمناطقي الذي قد يكون موجوداً في البلد، وهذا يعني كذلك أنه واضح في عيونهم إلى حد التألق لأنهم هم عشاقه وحاملوه وحاضنته وأدواته...

ب- الحلم الوطني يجب أن يركز على القيم التي مازالت تحرك الضمير الجمعي للمواطنين مثل الإحسان والاحترام والنزاهة ومساعدة الضعيف وحب الوطن وتعشق البطولة والرخاء المادي والحرية والعدالة وتكافؤ الفرص... إن الحلم الوطني الذي يرتكز إلى ما هو موجود من هذه القيم، ويسعى إلى تنميتها..سيلقى الكثير من دعم المواطنين وتعاطفهم.

ج- يجب أن يؤمن القائمون على الحلم الوطني بأن قوة الثقافة قادرة على زج الناس في العمل من أجل الحلم حيث إن الجهاز الفكري للحلم يقوم بإنتاج الأفكار والمفاهيم والقيم التي توظف المخزون العاطفي والروحي للناس، ويقوم الجهاز الإعلامي الضارب بتسويق ذلك المنتَج وتعريف الناس به.

إن الحلم يتصل بأشواق الروح وبالقناعة والرغبة، وإن التثقيف القوي والمتواصل هو الطريق إلى ذلك.

إن إيجاد الاتجاهات الإيجابية لدى الناس حيال المشروع الوطني يشكل ركيزة كبيرة على هذا الصعيد، ولدى معظم الأقطار الإسلامية ما يكفي من الرجال القادرين على إيجاد تلك الإيجابيات.

د- من الصعب جداً الحديث عن أي حلم وطني ما لم يتمتع البلد بقدر جيد من الاستقرار السياسي والانضباط الأمني إلى جانب استقرار جيد في التشريعات والقوانين التي تمس الجانب الاقتصادي والمالي على وجه التحديد حتى يتشجع الناس على الاستثمار في المبادرات الوطنية، وحتى تتوفر بيئة جاذبية للاستثمارات الخارجية.

هـ- نحن نحتاج إلى تغيير المنظور بالنسبة للحلم الوطني، فهو ليس ضرباً من الرفاهية أو نوعاً من حب السيطرة، إنه في الحقيقة سعي إلى الحياة الطيبة التي حدثنا عنها ربنا سبحانه حين قال: (من عمل صالحاً من ذكر أوأنثى فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[1] الحلم الوطني الموصول بعقيدتنا والمنضبط بأدبياتنا هو شكل من أشكال العبادة لله تعالى لما فيه من منعة المسلمين ومساعدة ضعفائهم وتفريج كرباتهم، ولما فيه من جعل بلادهم جذابة للعيش عوضاً عن اللجوء والتشرد والبحث عن لقمة العيش في بلاد الآخرين...

تغيير المنظور يعني تغيير نمط التفكير وتغيير الزاوية التي ننظر منها، كما فعل أ حين سأل عائشة عما بقي من شاة ذبحوها، فقالت: ما بقي منها إلا كتفها، أي

١ سورة النحل: ٩٧.

أنهم تصدقوا بها، ولم يبق إلا الكتف، فقال: (بقي كلها إلا كتفها) [1]

و- الحلم الوطني شيء جميل بنتائجه وثماره، لكنه ليس كذلك بمقدماته ومدخلاته، حيث إن على صانعيه الإدراك بأن الشروع في تحقيق الحلم الوطني يعني الدخول في صراع داخلي وخارجي كبير، كما يعني الرهان على تجاوز الكثير من العقبات ومواجهة الكثير من التحديات:

العقبات والتحديات والصراعات الداخلية تتمثل في التغيير الاستراتيجي الذي يتطلبه الحلم من إيمان الناس بالحاجة إلى الحلم الوطني وتغيير الكثير من مفاهيمهم وعاداتهم القائمة على ضيق الأفق والرغبة في المكاسب السريعة والترهل في الأداء وتعود الاستهانة بالنظم والقوانين السارية.. أضف إلى هذا تحديات تشكيل فريق العمل الذي يحمل المشروع ويحتضنه، ويتابعه في كل مراحل إنجازه، وهذا ليس بالأمر السهل.

أما الصراعات الخارجية فتتركز في الأساس على أن تحقيق الحلم الوطني يصطدم بمصالح استراتيجية كبرى لعدد من الدول المجاورة والبعيدة، مما يعني الدخول في حرب مصالح على المستوى الدولي، ولهذا فإن صانعي الحلم وحامليه يحتاجون إلى الكثير من الحنكة والكياسة والكثير من الشجاعة والدهاء[2].

جوهر الحلم الوطني:

للتقدم والنهوض الحضاري دائماً وجهان أو جانبان: معنوي ومادي، أما

---

١ رواه الترمذي.

٢ انظر كتاب: جيوبولوتيك: الجغرافيا والحلم العربي القادم د-. جاسم سلطان.

المعنوي فيتمثل في الكثير من الأشياء، لعل من أهمها:

-بلورة الهوية الوطنية الجامعة، إن كانت موجودة، والعمل على إيجادها في حالة فقدها.

-تشكيل العقل الجمعي الذي يسعى إلى رؤية مشتركة للتحديات والفرص وقبل ذلك الأهداف الوطنية الكبرى.

-تهميش الثقافة القائمة على الشك والتشاؤم واليأس والتردد،وترسيخ ثقافة المبادرة والجرأة والعطاء والتضحية والمثابرة.

ـ نبذ الغلو والتطرف بوصفهما الجرثومة التي تفتك بأي حلم وطني.

ـ العمل على تحقيق أكبر قدر ممكن من سيادة القانون والالتزام بتحقيق العدالة الاجتماعية والنزاهة والشفافية في الأعمال الحكومية.

ـ تعاون مثمر ومبدع بين الأجهزة الحكومية وبين القطاع الخاص والقطاع اللاربحي حيث يكون من مهمات الدولة ومؤسساتها قيادة مشروع الحكم الوطني وتوزيع الأدوار، وتنسيق الجهد المبذول.

ـ تعزيز معاني الولاء والانتماء الوطني والعمل على تقوية اللحمة الوطنية بما يحوِّل البلاد إلى ورشة عمل كبيرة ونشطة.

-ترسيخ قيم الأمانة والإخلاص والصدق والإحسان وتنمية الوازع الداخلي ومعاني الشرف والحفاظ على العرض واحترام التنوع الثقافي.

وأما الوجه المادي فينبغي أن يتجسد في أمور محسوسة وقابلة للقياس، وهذه تختلف من بلد إلى آخر بحسب المرحلة الحضارية التي يقطعها، ولهذا فنحن هنا

لا نتحدث عن أرقام مقصودة لذاتها، وإنما نتحدث عن أمثلة لتقريب المسألة من تصوراتنا، وقبل أن أذكر بعض الأمثلة أود القول: إننا نعيش في عالم شديد التغير، حيث تتخلق معطيات ومدخلات إيجابية ومهمة كثيرة في وقت قصير، ولهذا فإن رفع درجة الطموحات والتطلعات مهمة جداً حتى لا نحلم بأشياء عادية هي في متناول اليد. إن الحلم يعني التطلع إلى الحصول على أمور يشكل الوصول إليها تحدياً كبيراً لمعظم الناس، وهذه بعض الأمثلة:

-ناتج قومي كبير ودخل فرد مرتفع يماثل الحد الأدنى لدخل الفرد في دولة أوربية متقدمة.

-خطوط صناعية عملاقة تؤمِّن قدراً كبيراً من المنتجات الصناعية التي تسد حاجات البلاد، وعلى رأسها السلاح والمنتجات العسكرية.

-توفير الخدمات الأساسية على نحو مرْض، ويأتي في مقدمتها التعليم والصحة والماء والكهرباء والطرق ووسائل الاتصال والمواصلات.

-الانتهاء من الأمية الأبجدية على نحوٍ تام.

-أقل من ٥٪ من السكان هم تحت خط الفقر مع عناية كبيرة بذوي الاحتياجات الخاصة.

-١٠ جامعات على الأقل من جامعات البلد هي من ضمن أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم وثلاثون جامعة هي بين أفضل ١٠٠٠ جامعة في العالم.

-لكل مئة مواطن هناك مؤسسة خيرية أو رابطة أو نقابة أو ناد ثقافي أو هيئة أو فريق تطوعي...

-إن الحلم الوطني ليس مستحيلاً، لكنه ليس سهلاً لأنه يتطلب نوعاً من الاستنفار لكل قوانا الروحية والمعنوية والمادية، لكن هذا الاستنفار مع إرهاقه لنا يشكل مصدراً لمتعة فريدة، هي متعة عيش الحياة بكرامة ونجاح وقبل ذلك عيشها في إطارمرضاة الله تعالى!.

٢ - تغيير بالأدوات الناعمة:

التغير سنة من سنن الله تعالى في الخلق، واليوم وللعديد من الأسباب، يكاد يكون (التغير) هو الثابت الوحيد.

جرَّب الإنسان على امتداد التاريخ في إصلاح شؤونه وتغيير أوضاعه الكثير من الأساليب والأدوات، ومن المهم أن ننتهي بعد تلك التجربة الطويلة إلى بعض المستخلصات التي تساعدنا على تغييرٍ أنجع. لم أجد من يتحدث بوضوح عن التغيير بالأدوات الناعمة، لكن هناك من أفاض في الحديث عن (القوة الناعمة) حيث إن (جوزيف ناي) من جامعة هارفارد هو أول من صاغ هذا المفهوم والذي يتركز حول الاستدلال على أن قوة الثقافة والإبداع الحضاري والدبلوماسية والعلاقات الاستراتيجية والمساعدات المالية والمشاركة في جهود إعادة الإعمار والتنمية.. تستطيع مساعدة أمريكا على تحقيق أهدافها الاستراتيجية في العالم، ولم يكن مراد الرجل التدليل على استغناء أمريكا عن استخدام القوة الصلبة، وإنما أراد أن يقرر على أن في وسع أمريكا أن تحقق بعض أهدافها عن طريق القوة الناعمة.

أنا هنا أود التحدث بالتحديد عن عمليات ضبط المجتمع وإصلاحه وتغييره

نحو الأفضل باستخدام الأدوات الناعمة على نحو رئيس، ولا أعني بالطبع أن المجتمع يستطيع الاستغناء عن استخدام قوة القانون أو العقوبات حتى القوة المسلحة في الحفاظ على أمنة واستقراره إذا لزم الأمر.

الفلسفة الإسلامية في الإصلاح تقوم على الرهان على ما لدى الإنسان المسلم من وعي ومن رادع داخلي، ولهذا فإن توعية الناس وتربية حاَسة الردع الذاتي لديهم (الضمير) من أهم ما يجب التعويل عليه في الارتقاء بالمجتمع المسلم.

الضمير لا يتكون ولا ينضج تحت مطارق التهديد والوعيد ولا في أجواء القسر والضغط، وإنما يتكون وينمو في الأجواء الحرة حيث يولِّد الشعور بحرية الاختيار الشعورَ بالمسؤولية، ومن هنا كثرت النصوص التي تدل على استبعاد الإكراه عن دائرة الإيمان والتعبد والتدين عموماً، وفي هذا يقول الرب تبارك وتعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيِّ)[1] ويقول: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[2]

إن الإيمان لا يقبل الإكراه لأنه عبارة عن قناعة داخلية، وإذا كان لا يقبل الإكراه فليس من الحكمة ولا من الصواب إكراه الناس عليه، وهكذا كل المعتقدات والقناعات، ومن هنا كان تغيير عقائد الناس وثقافتهم وأخلاقهم عن طريق الإكراه عملاً عقيماً ومؤذياً، وإن من نستخدم القوة في إقناعه بفكرة أو عقيدةٍ ما، أو نستخدم القوة في تغيير بعض سلوكاته وعاداته لا يصبح إنساناً أفضل أو أتقى، وإنما يتحول إلى منافق إن كان ضعيفاً، وإلى متمرد إن كان قوياً.

١ سورة البقرة: ٢٥٦.

٢ سورة يونس: ٩٩.

ما الأدوات الناعمة ؟

المقصود بالأدوات الناعمة هنا هو: التربية والدعوة والإعلام والتعليم والحوار والنموذج الآسر الملهم؛ والحقيقة أن العالم المتحضر بأسره يركز على ما أشرت إليه.

إن مهمة التربية هي تجسيرالعلاقة بين الأجيال الماضية وبين الجيل الحاضر من خلال تلقين الصغار القيم والفضائل الاجتماعية ومن خلال تهذيب الزوائد في شخصياتهم، كما أن للتربية دوراً مهماً في تحويل الأفكار الجديدة إلى سلوك وثقافة، أي إلى أسلوب عيش، والتربية كما نعرف تعتمد أساساً على تقليد الصغار للكبار، ويأتي بعد ذلك التعليم بمحاضنه ومؤسساته المختلفة ليكمل دور الأسرة. ويستند الإعلام والدعوة وعمليات التواصل والإقناع إلى الإيمان بقوة المعرفة على التغيير والإيمان بقوة المنطق على تصحيح المسارات الخاطئة، ويستأثر (النموذج الملهم) بالكثير من الفاعلية التغييرية، والحقيقة أن البنية العقلية العميقة للناس تميل إلى الحكم بالاستحالة والصعوبة، ولا يكسر ذلك الميل إلا النموذج المحسوس، ومن هنا فإن الله تعالى أكرم الأنبياء عليهم السلام بالعصمة ليشكلوا لأتباعهم القدوة والأسوة الحسنة، وليتجسد ما يدعون إليه في سلوكياتهم أفضل تجسيد.

إن النموذج الملهم يحمل الناس على تقليده ويعد مدة من التقليد يبدأ التطوير، ومن هنا فإننا اليوم لسنا في حاجة إلى كم هائل من الإنجازات الحضارية وفي كل الأصعدة، ولكننا في حاجة أيضاً إلى أن تكون منجزاتنا متفوقة حتى تكون ملهمة ومؤثرة، وقد انتشر الإسلام في جنوب شرق آسيا من غير أي قوة عسكرية، وإنما

من خلال السلوك المستقيم لعدد من التجار البسطاء.

إن هناك حقيقة مهمة، هي أن الأمم لا تنتقل من وضعية إلى وضعية من خلال الأفكار، وإنما من خلال النماذج، وإن المجتمعات مستعدة للتغيير والارتقاء لكنها تحتاج دائماً إلى من يمضي أمامها ليعبِّد لها طريق التقدم.

متطلبات:

يتطلب النجاح في التغيير بالأدوات الناعمة إلى عدد من الأمور:

١-المصداقية وهي شرط مهم للنجاح في استخدام الأدوات الناعمة، إذ إن الناس يستجيبون للمنادين بالتغيير بشرط أن يكونوا شفافين وصادقين معهم، أي أن الناس يجب أن يشعروا أنك لا تكذب عليهم، ولا تخدعهم، ولا تبتزهم، ولا تقول لهم نصف الحقيقة، وتحجب عنهم النصف الآخر.

ثقة الناس بالقائمين على التغيير تشكل جزءاً من رأسمالهم ومن عتادهم، وينبغي عليهم الحفاظ عليه.

٢-حتى تؤثر الأدوات الناعمة في الناس، فإنها تحتاج إلى أن يكون لدينا منتج جيد، ويكون المنتج جيداً حتى لا يصادم عقائد الناس، ولا يفوتٍ عليهم مصالحهم، أويصادم ما لديهم من أمور يعتزون بها مثل لغتهم أو رموزهم بسبب أنه لا يحمل سمات فئوية أو عنصرية معينة، وهكذا فالناس لن يتجاوبوا مع أي منتج ثقافي يدعو إلى التطرف أوالانغلاق أو تمجيد عرق أو مكون من المكونات الوطنية، كما أنهم لهن يتفاعلوا مع أي منتج يتدخل في حياتهم الشخصية وأسلوب عيشهم. إن الله تعالى خلق الناس أحراراً ليحيوا أحراراً؛ وإنهم سوف يقفون في

وجه كل من يسلبهم حريتهم.

٣-الأداة الصلبة لا تقتصر على القوة فحسب، فالقانون لأنه يسمح باستخدام القوة ضد من لا يخضع له، هو الآخر أداة صلبة، ولهذا فإن الدولة الفاضلة هي التي تسنً أقل قدر ممكن من القوانين، وإن استخدام القوة أوالتهديد أو الضغط في تغيير قناعات الناس هو في الحقيقة نوع من العدوان عليهم ونوع من سلبهم حقهم في الاختيار، لكن في بعض الأحيان تكون هناك حاجة لسن قوانين رادعة كما لو شاعت الفوضى في البلد، وكذلك هناك دائماً حاجة إلى سنً قوانين لحفظ الآداب العامة والمظهر العام للمجتمع، وإن الناس يتقبلون ذلك تحاشياً للابتذال والفوضى، لكن هناك مؤشرات كثيرة تشيرإلى أنه لا بد من تعانق القانون مع الثقافة، الثقافة والأدوات الناعمة تولد القناعات، والقانون يحمي المكتسبات الثقافية والاجتماعية، القانون يوجد الثقافة، والثقافة تسهل الالتزام بالقانون وقد تغني عنه في بعض الأحيان، لكن الأصل هو العمل على تقليل القوانين إلى الحد الأدنى.

تغيير المجتمع بالأدوات الناعمة دليل واضح على رقي البشر وتحضرهم واستعدادهم للانقياد لضمائرهم والقيم التي يؤمنون بها.

٣- عصرالقيادة والنظم الجديدة:

على مدار التاريخ كانت المشكلة الأكبر التي تواجه العالم هي الكيفية التي يتخلصون بها من الأفكار والأساليب والنظم القديمة، وذلك يعود إلى الإلف الذي ينشأ بين الناس وبين ما أشرنا إليه، كما أنه يعود إلى خوفهم من الجديد

وأحياناً تتمثل المشكلة في فقد الطاقة الروحية التي يحتاجها التغيير والتجديد.

إن علينا ألا نمل من ترديد القول: إن عصرنا هذا هو عصر الإبداع والقيادة والنظم الذكية، وهو أيضاً عصر التنافس على كل شيء، وعصر السعي الحثيث إلى تحقيق الجودة، ومن الواضح أن الدول الأكثر تقدماً والأكثر تحكماً بالعالم هي التي سبقت إلى إدراك هذه المعاني والقيم، ومن ثم فإنها عرفت كيف تنميها وتستثمرها من أجل المزيد من السيطرة العالمية، والمزيد من التقدم الحضاري، وإن الخبر الجيد هو أن الشعوب النامية أخذت في التعلم بالسرعة، وأخذت تطوي المسافات الفاصلة بينها وبين الأمم الأخرى في مدد قصيرة، لكن المشكلة التي تواجهها تظل في الكتلة الهائلة من شعوبها التي لم تنل إلا القليل من التعليم والقليل من التمدن!

العالم النامي ومنه معظم الدول الإسلامية مازال يبحث عن القائد العظيم المخلِّص الذي يقلب كل الطاولات، ويغيِّر كل المعادلات، ويدفع بكل الجماهير نحو النصر العظيم والنهائي، وهذا مستوحى من التراث، والذين يستوحونه لا يعرفون ما الذي يحدث اليوم!.

مضى زمن الأبطال العظام الذين يجود الزمان بالواحد منهم كل قرن أو قرنين، وجاء زمان ملايين الأبطال الصغار الذين ينجرون الكثير الكثير من الأعمال الصغيرة، ويسدون الثغرات الضيقة، ويعملون بصمت على مراكمة النجاحات والإضافات المحدودة، لكن الواضح أن إيصال هذه الحقيقة لكثير من الناس يحتاج إلى درجة من الوعي والمعاصرة، مازالت بعيدة عن جماهير عريضة من شعوبنا!

ما بين قيادة وقيادة:

لو عدنا مئة سنة إلى الوراء لوجدنا أن كل شيء كان بسيطاً، كما أن الكتل السكانية والشركات والمؤسسات كلها كانت صغيرة بما لا يقارن بما عليه الحال اليوم، وهذا جعل النظم الإدارية والنظم التشغيل شبه معدومة أو بسيطة غاية البساطة، مما أدى إلى بروز القائد الفذ الطموح المزاجي الذي يفرض رؤيته على غيره، ويستطيع بسهولة تجاوز النظم البسيطة التي كانت موجودة، ويبدو لي أن هذه سنة من سنن الله تعالى في الخلق إذ كلما غاب النظام ولائحة قوانين العمل برز دور المديروالقائد، والعكس صحيح.

هناك نوع من القيادة ساد كثيراً في الماضي، ومازال بعضه مستمراً إلى اليوم، هذا النوع يقوم على قدسية العادات والتقاليد والمكانة الاجتماعية، كما هو الشأن لدى بعض القبائل حين يصبح ابن شيخ القبيلة زعيماً، ونمط آخر من القيادة كما يرى ماكس فيبر يقوم على الكاريزما أو الجاذبية والنفوذ الشخصي كما هو شأن الأبطال الذين يقودون المعارك، وكما هو شأن رؤساء الكتل النيابية في البرلمانات، وشأن الحكماء الكبار الذين يعود إليهم الناس في الملمات، هذا النمط وذاك يظلان مستمرين إلى ما شاء الله، لكنهما في طريق التقلص والانكماش لصالح نمط جديد من القيادة هو القيادة القائمة على المعطيات والتنظيمات القانونية في ظل تشريع ولوائح إدارية واضحة. في هذا النمط من القيادة يتم تحديد الأهداف التي سيحققها القائد، والمنجزات التي من أجلها تم اختياره للمنصب، كما يتم توضيح واجباته ومسؤولياته وحقوقه ونوعية العلاقات التي تربطه بموظفيه وزملائه

والسلطة العليا إن كان هناك سلطة أعلى منه، وهكذا تميل كل الأشياء اليوم إلى الموضوعية، وترتبط أشكال اختيار القادة والمديرين والتعامل معهم على أساس الإنجاز، وما يكون في إمكانهم تقديمه للمجتمع أو الشركة... التي يقودونها.

في الماضي كان من أهم سمات القائد الفذ الجرأة في اتخاذ القرارات والسيطرة التامة على من يقودهم، إلى جانب نوع من التفرد في المسؤولية عن اتجاه المنظمة أو المؤسسة أو الدولة... وذلك بسبب عدم وجود تقاليد إدارية عريقة في الاستماع إلى العاملين ومشاورتهم والتواصل معهم... اليوم هناك انتقادات واسعة لهذا النمط من القيادة، حيث إن الظروف الصعبة والمعقدة وضخامة الأعمال والمسؤوليات جعلت الحاجة إلى الرؤية الجماعية والمعلومات الميدانية ماسَّة جداً، ولهذا أصبحنا نسمع ونقرأ كثيراً عن الإدارة الأفقية والإدارة المرنة والذكاء الجماعي، بل صرنا نقرأ عما يسمى (الهرم المقلوب)، بل هناك من يتحدث عن إلغاء التسلسل الهرمي كله في عالم القيادة والإدارة، والحقيقة أن التسلسل الهرمي لن يُلغى، ولن تصبح قاعدة الهرم في مكان رأسه، فهذا ضد طبائع الأشياء ومنطقها، لكن الذي يتغير هو أسلوب القيادة والعلاقة بين القائد وعامة الناس وبين المدير وموظفيه، وعلى سبيل المثال فقد كان المعمول به في المشافي هو أن تصدر إدارة المشفى والأطباء الأوامر للموظفين وجهاز التمريض ليقوموا بتنفيذها، أما اليوم فإن أسلوب القيادة الجديدة يقوم على أن يستمع رؤساء الأقسام في المشفى لما يقوله المرضون والممرضات وأن يقوموا بالحوار معهم، وفهم الواقع من خلالهم، كما أنهم يقومون باتخاذ القرارات والإجراءات المطلوبة بمشاركتهم.

في الماضي كان التدريب الفني والأكاديمي على رأس العمل شبه مفقود، فالشاب إما أنه يصلح للوظيفة أولا يصلح، أما القادة والمديرون فإنهم كانوا

يدرَّبون أو يعدون أنفسهم لأن يكونوا واثقين بذواتهم وقادرين على فرض سيطرتهم على موظفيهم وعلى عملية التوجيه واتخاذ القرار، أما اليوم فإنه يتم تدريب من سيتولون القيادة على توطين أنفسهم على سماع النقد من الأتباع وصغار الموظفين إلى جانب التحلي بقيم المواجهة البناءة والمشاركة والإنصات والتفاعل المثمر والتنسيق الذكي والاحترام والتقدير والشفافية، إن كل هذا التغير قد أدى فعلاً إلى تقريب المسافة بين القمة والقاعدة، كما أدى إلى كسر حدة التسلسل الهرمي القديم في القيادة مما ساعد على تنمية الروح الجماعية والعقل المشترك في المنظمات والمؤسسات، وهذا يتناسب تماماً مع أعمق القيم الإسلامية في هندسة العلاقات بين البشر.

نظم جديدة:

على مدار التاريخ كان التطور التقني هو رائد التغيير في أسلوب عيش كل البشر، ويظهر هذا اليوم كما لم يظهر في أي يوم من الأيام، حيث أدى التقدم المذهل في وسائل الاتصال ونقل البيانات ونشر المعلومات إلى إمكانية اطلاع كل العاملين في أي حقل من الحقول على كل المعلومات المهمة لتسديد العمل وكل المعلومات المطلوبة لصواب القرار، وإنه لشيء يدعو إلى الذهول أن يتمكن مئات الملايين من البشر في كل أنحاء الأرض من قراءة كتاب واحد أو الاطلاع على معلومات واحدة في لحظة واحدة عبر حواسيبهم الشخصية!

هذه الوضعية الفريدة وغير المسبوقة جعلت من المؤسسات العملاقة هيكلاً يفكر بعقل واحد ويتنفس برئة واحدة!.

ميزات النظم الجديدة:

١-صار للتغذية الراجعة أو المرتدة قيمة كبيرة في كل النظم الحديثة، لأن القيادة تريد النجاح الحقيقي، والنجاح الحقيقي يكون في كسب الجمهور والزبائن والعملاء وفي رضا الموظفين والعاملين في المؤسسة، ولهذا نجد صناديق المقترحات والشكاوي كما نجد نظام لتسجيل المكالمات التي تتم بين الموظفين وبين الزبائن أو العملاء، وهذا يعني إعطاء أهمية إضافية للنقد،كما يعني الحرص على إشراك الجميع في اتخاذ بعض القرارات، إنها الروح التشاركية المفروضة من قبل الوعي الجديد والمصلحة الأكيدة للمؤسسة أوالمنظمة.

٢- يتجذر في نظم الإدارة والتشغيل اليوم الإدراك بضرورة التصرف بأفق واسع تجاه كل النظم الموروثة، ومن هنا فإن حمى التغيير النظمي تجتاح كل شيء، حيث صار التركيز على الأهداف والإنجاز والنتائج والجودة وخفض التكاليف.. هو الذي يوجه عملية تطوير النظم، ومن هنا صار لدينا الإدارة بالأهداف والإدارة بالتفويض وإعطاء الحرية لكثير من الموظفين أن يعملوا من بيوتهم، كما صار هناك ميل للإدارة المدمجة، أي تقليل المستويات الإدارية، مما أدى إلى حذف الإدارة الوسطى في بعض المؤسسات، كما أدى إلى الميل إلى (اللامركزية) الإدارية، وهذا كله جعل (المرونة) هي الشيء الذي يسرى في كل النظم كما يسرى الماء في العود الأخضر!.

٣-الاستعداد للتغيير والتطوير الشامل صار هو العلامة المميزة للمؤسسات والشركات الناجحة، وهذا تطلب شيئين أساسيين:

الأول هو: وجود قيادة واعية واسعة الأفق وحاصلة على درجة عالية من

التعليم والتدريب. الثاني هو: وجود كوادر بشرية ماهرة ومدربة ومستعدة لمزيد من الاعتماد على المعرفة الجديدة في كل أنشطتها.

هذا وذاك أديا إلى وجود ما يسمى بالمؤسسات الذكية أو المتعلمة.

المؤسسات الذكية تتسم بالسمات الآتية:

-وجود نظام يحفز على الإبداع من خلال التشجيع والتحفيز والمشاركة في اتخاذ القرارعوضاً عن العقوبة والضغط والتهديد.

-استعداد كبير للإنفاق على التدريب والتطوير.

-التمتع بنظام يحمي المؤسسة من مخاطر الاجتهادات الفردية.

-التعلم من التجارب الذاتية وتجارب الآخرين.

-تطبيق مبدأ التجريب والاكتشاف والتعويل على البحث العلمي الخاص بها.

-اعتماد الأسلوب الإداري البسيط والتفكير المعقَّد الذي يأخذ الكثير من المعطيات بعين الاعتبار.

-الشفافية والإفصاح والمصداقية سمات مهمة للمنظمات والمؤسسات الذكية.

الخلاصة:

قد وجد العالم من حولنا في تطوير النظم وبناء القيادات الجديدة باباً عريضاً للتقدم في كل جوانب الحياة، وينبغي على العالم الإسلامي أن يأخذ بآخرما انتهى إليه العالم في هذا الشأن حتى يستدرك على ما لديه من ضعف وقصور في الموارد وحتى يتغلب على ما لديه من مشكلات متعددة الأوجه.

٤ - رأس مال عالمي جديد:

لو رجعنا ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء لوجدنا أن رأس مال الدول والقبائل والأفراد ظل عبارة عن أشياء مادية منظورة، حيث كان رأس المال القديم يتجسد فيما تملكه الدولة...من أراضٍ واسعة وغابات ومعادن ومصادر للطاقة ومياه عذبة وشواطئ طويلة على البحار بالإضافة إلى الموقع الاستراتيجي، لكن هذا آخذ في التغير اليوم وعلى نحو حثيث. لاشك في أنه يظل لكل ما ذكرناه قيمة مقدرة، لكن القيمة ليست في سبيل التعاظم، وإنما هي في سبيل التضاؤل والتراجع بسبب رأس المال الجديد، والذي يتمحور على نحو واضح حول معطيات ومقدَّرات غير مادية وغير ملموسة، وفي هذا عودة على المستوى العالمي إلى الرؤية القرآنية في البناء والإصلاح والتغيير حيث إن المتأمل في القرآن الكريم ولا يبعد عن هذا ما نجده في الحديث الشريف يجد أن أكثر من ٩٥٪ من آياته تتحدث عن الإنسان: تاريخه وعقيدته ومسؤولياته وما يُصلح شأنه بالإضافة إلى مصيره ومعاده... إن الله عز وجل أخبرنا عن محورية الإنسان في الكون حين ذكر أنه سخَّر له كلَّ شيء ليكون هو السيد المستفيد حيث قال سبحانه: ﴿ وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾[١] التقدم يبدأ بالإنسان، وينتهي بالإنسان،وكل ما يحدث في الأشياء من تحسين وتطوير يجب أن يصب بوجه من الوجوه في مصلحة الإنسان، الإنسان العابد المهتدي والموعود بالخلود في جنات النعيم.

نستطيع القول: إن كثيراً من التحولات التاريخية على صعيد أسلوب عيش البشر ظل مرتهناً للتطور التقني الذي يتمكنون من إحداثه، ومن الواضح جداً أن

---

١ سورة الجاثية: ١٣.

أهم ما حدث في العشرين سنة الماضية يتجسد في شيئين اثنين، هما: التقدم المذهل في وسائل الاتصال وثورة المعلومات واللذين كان لهما تأثير مباشر في (المؤسسة) والتي تُعدُّ الوحدة الأساسية في تكوين المجتمع الاقتصادي.

هذا التقدم دفع في اتجاه التحول إلى المعطيات المعرفية بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، حيث أدركت المؤسسات والشركات وكل المنظومات الاقتصادية أن العنصر البشري لديها هو أساس ثروتها، وهذا يعود في الأساس إلى تراجع الأهمية النسبية للميزات التنافسية التي كانت لرأس المال والمواد الخام والمكائن وكل المعطيات المادية، إن اليابان والتي شهدت تدميراً واسعاً في الحرب العالمية الثانية،والتي لا تملك إلا القليل من وأس المال القديم قدمت للعالم أعظم البراهين على محورية الإنسان والعمل الإنساني في إحداث النقلات الحضارية الكبرى حيث إنها تمكنت خلال أقل من أربعين سنة من أن يصبح اقتصادها هو الثاني بعد الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان من الواضح أن الابتكار والإبداع بالإضافة إلى الإدارة الممتازة للعلاقات بين منسوبي المؤسسة الواحدة هما العاملان الأساسيان في ذلك.

إن دولاً مثل اليابان وسنغافورة ودولاً مثل السودان وغينيا والنيجر قد قدمت البراهين الكثيرة على أن قلة الإمكانات المادية ووفرة المواد الخام والمساحات الخصبة الشاسعة ليست هي العامل الحاسم في تقدم الأمم وتأخرها، وإنما العامل البشري، فجهل الإنسان وعدم صقل مواهبه ومهاراته، وسوء تنظيم مؤسساته... هي العامل الجوهري في عجزه عن الانتفاع بما لديه من موارد معنوية ومادية.

ما بين القديم والحديث:

مشكلة معظم الناس هو بطء حركة الوعي لديهم، مما يجعله متخلفاً عن فهم الواقع والذي توافدت عليه عوامل التغيير من كل حدب وصوب، ولهذا كان من المهم أن نشير إلى بعض المقارنات بين رأس المال القديم ورأس المال الجديد، وما يرتبط بكل منهما من أساليب التنظيم والإدارة. قد ذكرت أن رأس المال القديم هو معطيات مادية: أراضي واسعة، معادن أنهار عذبة... أما رأس المال الجديد فهم عبارة عن مجموعة المعارف والمهارات والإمكانات والقدرات والخصائص الكامنة في الأفراد، وهو أيضاً ما تتمتع به المؤسسات من نظم متعددة، وما يسود فيها من أعراف وتقاليد ومفاهيم ذات دور إيجابي في التطوير وتحسين الإنتاجية. إن العالم قد جمع كل خبراته القديمة والجديدة في تحسين الاقتصاد بيئات الأعمال ليصبها في أسلوب تعامله مع التحديات والفرص التي ولّدها التقدم التقني وثورة المعلومات، وقد كان من ملامح ذلك الأسلوب الآتي:

١ - في الاقتصاد القديم كان الاعتماد على الجهد العضلي ورأس المال في عمليات الإنتاج لكن هذا قد تغير اليوم حيث صار الاعتماد أكثر فأكثر على التعليم بوصفه مفتاح التحول من المادي إلى المعنوي، وتأثيره لا يقتصر على تحسين الإنتاجية، بل إنه يحمي الطبقات الدنيا من كثير من أشكال الابتذال والفساد، كما يحميها من البطالة والعطالة مما يجعله عاملاً أساسياً في الاستقرار السياسي والاجتماعي.

٢- العلاقة بين المال والمواد الأولية وكل المعطيات المادية وبين الزمن هي علاقة عكسية، أي أنها تُستنفد وتفقد قيمها مع مرور الأيام، أما رأس المال البشري فعلاقته بالزمان علاقة طردية، فما لدى الواحد منا من معارف ومهارات غير قابل

للتقليد، ويتميز بالوفرة، لأنه ينمو كلما أنفقنا منه أكثر، ونحن نعرف على سبيل المثال أنه من المستحيل أن يقرأ شخصان في مكانين متباعدين في نسخة واحدة من أي كتاب على حين أننا اليوم نستطيع توزيع ملايين النسخ الالكترونية لأي كتاب على ملايين الناس في أنحاء المعمورة، إنه شيء مذهل بكل معنى الكلمة!!.

٣- في الماضي كان التدريب في المؤسسات محدوداً، وكانت الرقابة على الموظفين ومتابعتهم مطلباً من مطالب الإدارة الناجحة، أما في عهد رأس المال الجديد، فقد صار المطلوب هو التطوير الشامل لشخصية الموظف ليمتلك اللياقة الكاملة في أدلى المهمات الموكلة إليه، وصارت تنمية الرقابة الذاتية هي البديل المطلوبة للرقابة والمتابعة الخارجية، وهذا يتناسب مع الرؤية الإسلامية في الإصلاح، حيث إن المصلحين المسلمين يراهنون في إصلاح المجتمع على شيئين: الوعي والضمير الحي.

٤- على مستوى إدارة الموارد البشرية كان التركيز على عدد من الأمور، منها الأداء الآلي للمهام، ومنها استخدام الحوافز المادية والتركيز على قدرات الفرد... أما مع رأس المال الجديد، أو البشري، فقد صار التركيز على الإبداع والأداء الفكري، كما أن الحوافز قد صارت معنوية ومادية بالإضافة إلى التفويض ومنح الصلاحيات مما يتناسب مع استقلالية الموظف يتمتع به من رقابة ذاتية.

الخلاصة:

إن رأس المال الجديد والذي ذكرناه أنه يقوم على تطوير الإنسان وما يتصل به من نظم العمل والتشغيل والبيئة الإنتاجية... يتطلب منا في المدارس والجامعات

والبيوت والمؤسسات والشركات أن نقوم بعملية تغيير واسعة لمقومات النجاح والتفوق والاستقرار.

نحن على مستوى الفرد مطالبون ببث الثقة بالنفس والتفاؤل والأمل والمثابرة في أداء الأعمال إلى جانب الانضباط الذاتي:

أما على مستوى المؤسسات والشركات فإن رأس المال الجديد يتكثف فيما لديها من نظم متقدمة وبراءات اختراع وقواعد البيانات، إلى جانب ولاء العاملين للمؤسسة ونوعية العلاقات الاجتماعية السائدة فيها.

إن شركات مثل جوجل وفيسبوك وياهو وسامسونك قد تأسست منذ سنوات قليلة لكن قيمتها السوقية تزيد على قيمة شركات كثيرة أسست قبل أكثر من مئة عام، وفي هذا أكبر البرهان على أننا في زمان الإمكانات غير الملموسة، وهذا يعني أن أبواب التقدم المذهل مفتوحة أمام الأغنياء والفقراء على حد سواء!.

٥ - بيئة أنقى:

قد يكون أدق ما نصف به حياتنا على هذا الكوكب هو أنها حياة اعتمادية بامتياز، فنحن على الرغم من شعورنا بكثير من الحرية والاستقلال إلا أننا في الحقيقة نعتمد في صلاح شؤوننا على بعضنا وعلى محيطنا والبيئة التي نعيش فيها، كما أن يحيط بنا من ماء وهواء وتربة ونبات وخيرات البر والبحر.. كل هذا محتاج في استمرار وجوده إلى رعايتنا وحمايتنا وتعاوننا.

هناك إلى جانب البيئة الطبيعية بيئة اجتماعية مشحونة بالرموز والعادات

والتقاليد والحاجات والتناقضات... ونحن أيضاً نتأثر تأثراً بالغاً بهذا، ونؤثر فيه. إننا نعيش في الحقيقة في عالم مزدحم بالنظم والعلاقات المتشابكة والغامضة، وإن علينا أن نعي ذلك ومزارعيه من أجل خير الفرد وخير المجتمع وخير البيئة والمحيط.

الخالق جل جلاله بنى البيئة الطبيعية على هذه الأرض على قدر كبير من التوازن الفطري، والإنسان بجشعه وطموحاته وحاجاته المتجددة والمتسعة هو الذي يكسر التوازن البيئي، ويعمل بالتالي على تخريب ما هو ضروري لاستمراره على هذه الأرض.

حماية البيئة:

رسالة الإسلام بوصفها الرسالة السماوية الخاتمة اهتمت اهتماماً واضحاً بحماية البيئة الطبيعة، ولم تكتف بالحماية بل دعت إلى تحسين البيئة وجعلها أفضل مع الأيام، والحقيقة أن الإسلام ينظر إلى البيئة وكل خيرات الأرض وإمكاناتها على أنها أمانة تركها الجيل السابق لدى الجيل الحالي كي يسلمها إلى الجيل القادم، وليقوم هذا الأخير بعين العمل مع الجيل الذي يليه، والمطلوب منه ليس حفظ الأمانة فحسب، وإنا أن بتعامل معها كما يتعامل العالم الكبير مع مكتبته، إنه ينتفع بها، ويضيف إليها دائماً المفيد والجديد من الكتب، ويوم يرحل عن هذه الحياة يترك مكتبته وهي أشد ما تكون اكتمالاً وجمالاً وثراء.

إن النصوص الدالة على حماية البيئة وتنميتها كثيرة، لعل منها قوله تعالى: ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وأدعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من

المحسنين ﴾[1] فالله تعالى أحسن كل شيء خلقه، وعلى الناس الحفاظ على محاسن الخلقة وخيرات الأرض.

ويقول ﷺ : ﴿ الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ﴾[2] وإنه لشيء وعظيم أن تكون إماطة الأذى عن الطريق مع كلمة التوحيد في منظومة واحدة، وجعل ﷺ كف الأذى حقاً من حقوق الطريق حين قال ﴿ ... فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه ؟ قال غض البصر وكفّ الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾[3] وكف الأذى هنا عامة تشمل الحرص على بقاء الطرق نظيفة، كما تشمل أذى الكلام من استهزاء وغمز ولمز ونبذ بالألقاب.

وعلى المسلم الحفاظ على موارد الأرض من معادن وحيوان ونبات وهواء وماء، والحفاظ عليها باستهلاكها باعتدال مع الاقتصاد في ذلك على قدر الإمكان، لأن الله تعالى لم يخلق خيرات الأرض لجيل من الناس، وإنما خلقها لسكانها إلى يوم الدين، وفي هذا يقول ﷺ : ﴿ من قتل عصفوراً عبثاً عجّ إلى الله عز وجل يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة ﴾[4] وكان من شأنه ﷺ الاقتصاد في استخدام الماء على نحو لافت للانتباه حيث صحّ أنه كان يغتسل بالصاع أي بأقل من ثلاثة لترات، ويتوضأ بالمد، وهو أقل من لتر، وعدّ غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرات من باب التعدي والظلم لما فيه من مخالفة هديه ﷺ والإسراف

---

١ سورة الأعراف: ٥٦

٢ رواه البخاري.

٣ روه مسلم.

٤ أخرجه البيهقي وغيره.

في الماء، وقد قرن الله تعالى المبذرين بأسوأ خلقه الشياطين حين قال: ﴿ إن المبذرين كانوا أخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾[1]

إن المسلم ليس مأموراً بحماية البيئة الطبيعية فحسب، وإنما عليه كذلك تنمية مواردها بكل وسيلة ممكنة، وتلك التنمية من أبواب التقرب إلى الله تعالى، وفي هذا يقول ﷺ : ﴿ لا يغرس مسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة ﴾[2] وقال أيضاً: ﴿ إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليقل ﴾[3].

إن الإسلام لا يحث على حماية البيئة الطبيعة فحسب، وإنما يحث أيضاً على الحفاظ على البيئة الاجتماعية، ويلاحظ في هذا السياق العديد من الجماليات والذوقيات، وقد ثبت أن تأثير البيئة الاجتماعية في هناء الناس واستقرارهم وفعاليتهم أكثر من تأثير البيئة الطبيعية، وتعاليم الإسلام في هذا كثيرة جداً في الحقيقة في هذا، ومن أهمها حماية أبصار الناس وأسماعهم من كل ما يزعجهم لأن الأعين والآذان هي أهم منافذ عقولنا على الوجود، وفي هذا يقول الله تعالى حاكياً نصيحة لقمان لابنه حين قال: ﴿ واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾[4] ويقول سبحانه: ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم،إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾[5] إن الضوضاء تؤذي السمع وتحرم الإنسان من الاستماع

---

١ سورة الإسراء: ٢٧.

٢ رواه مسلم

٣ رواه أحمد وغيره

٤ سورة لقمان:١٩.

٥ سورة الحجرات: ٣،٤

بنعمة الهدوء، ولهذا كام على كل متكلم أن يرفع صوته بمقدار ما يسمع به الذين يتحدثون معهم، كما أن على المسلم إذا سعل أو عطس أو تحرك في مجلس أو مجمع من مجامع الناس أن يغض صوته، وأن يقلل من أي صوت مزعج يصدر عنه إلى أبعد حد ممكن.

إن التلوث كما يكون سمعياً يكون بصرياً أيضاً ولهذا كان الحرص على المظاهر الجمالية وحث المسلم على التجمل إلى جانب حثه على النظافة من أهم مقومات التخلص من التلوث البصري. إن النظافة وانتشار المسطحات الخضراء إلى جانب تناسق الأشكال العمرانية تناسق وطلاء واجهات البنايات إلى جانب معالجة القمامة وتدويرها... إن كل هذا يساعد على إيجاد بيئة مريحة لأبصارنا وبالتالي لنفوسنا ومشاعرنا.

السؤال هو: إذا كان لدينا كل هذا الكم الهائل من النصوص والأحكام التي تدفع بالمسلم لأن يعيش في أنقى بيئة وأجمل محيط، فلماذا نجد كثيراً من البيئات والبلدان الإسلامية غارقاً في الفوضى والضجيج مع انتشار القمامة والأوساخ بطريقة مخجلة ؟

الجواب يكمن في تقرير حقيقة مهمة هي أن النصوص والتعليمات والمبادئ لا تعمل في فراغ وإنما في سياق شروط محددة، وإن مهمة الأجهزة التربوية في البيوت والمدارس ومهمة القوانين والنظم هي تحويل كل ذلك إلى سلوكيات وعادات وأذواق وأعراف يخضع لها الجميع ويحميها الجميع. وقد صار الحرص على حماية البيئة وتدوير النفايات وطرق التعامل معها من أهم المؤشرات الحضارية، وكلي أمل أن تلقى هذه المسألة المزيد من العناية والمتابعة، فنحن نهندس بيئاتنا ثم تقوم بيئتنا بهندسة مشاعرنا وأذواقنا.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات وبعد:

فإن ما نحتاج إلى التفكير فيه كثير، وهو ليس ثابتاً ولا نهائياً، فالتطور الذي تشهده كل جوانب الحياة وعلى كل الأصعدة، يجعل ما يستحق التفكير والاهتمام في حالة من التجدد المستمر، لكن قد تعلمت في هذه الحياة أن المهم في طروحاتنا ومداولاتنا ألا نكثر من الموضوعات التي نعدها مهمة للغاية أو مصيرية، لأن الذي يتكلم في كل شيء قريب من الذي لم يتحدث عن أي شيء، ومن هنا فأن من المهم جداً أن نقوم بنوع من المأسسة لقضايانا، فيكون لكل قضية حيوية عدد من المؤسسات ودوائر الاهتمام والعمل والمثابرة، ويكون هناك نوع من التواصل والتشاور بين جميع المسؤولين عن تلك المؤسسات والدوائر بغية تشكيل تيار نهضوي متماسك ومتكامل.

إنني لم أتحدث هنا عن (التفكير) ولا عن أنواعه وآلياته لأن هذا من الفنون الصغرى، مع أنني أعتقد أننا نظل في حاجة مستمرة إلى الاهتمام بـ- (التفكير الموضوعي) أننا من خلاله نتمكن من رؤية الأشياء على ما هي عليه، كما أننا نستطيع إعادة النظر في معاييرنا وطريقة حكمنا على الأشياء وبالتالي الخلاص من التشوهات الذهنية التي تجعل عما عقولنا في اتجاه واحد أشبه بالمستحيل.

إن بعض ما تحدثت عنه في هذا الكتاب كنت قد طرقته في كتب أخرى، لكن من الواضح أن الموضوعات الحيوية جداً لا تكفيها معالجة واحدة بسبب ما يطرأعليها من تغيرات جوهرية وبسبب تطور رؤيتنا وأساليب تعاطفنا معها.

وإني لأسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يأخذ بأيدينا، ويوفقنا إلى ما هو خير وأبقى ..

والحمد الله رب العالمين.